الولد الشقي في السجن

محمود السعدني

الولد الشقي في السجن

تأليف
محمود السعدني

هنداوي

الولد الشقي في السجن

محمود السعدني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٤١٦ ٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

المحتويات

١- أبو سداح	٧
٢- اليانكي	١٩
٣- سيد الحليوة	٢٧
٤- المسلكاتي	٤١
٥- عبد الستار السياسي	٥٥
٦- عبد الحفيظ الاشتراكي	٦٥

الفصل الأول

أبو سداح

القتل صفة حيوانية، نقلها الإنسان عن الحيوان، والحروب نوع من القتل الجماعي، وهو وقف على الإنسان، ولكن براءة الاختراع تبقى من حق الوحش. كل ما أضافه الإنسان أنه نظَّم عملية القتل، جعل منها قانونًا، ونظامًا، ووزع الرُّتَب والنياشين، وجعل من القاتل بطلًا، ومن المقتول شهيدًا، ولكن يبقى الوحش بعد ذلك أكثر إنسانية من الإنسان، إذا قُورِن فِعْل الوحش بفعل الإنسان الذي اخترع أحقر وأبشع أداة للتعذيب وهي السجن!

هل رأيتم قبل الآن، أسدًا يحبس أسدًا ويقيم هو خارج العرين، يأكل ويشرب ويتمطَّى ويتجوَّل في الغابة؟

هل رأيتم أسدًا يحبس فيلًا أو نمرًا أو حتى غزالًا؟

الأسد يُصفِّي حساباته بسرعة، يُمزِّق فريسته إربًا ويرميها بعد دقائق، ولكن الإنسان اخترع زنزانة، وحَوْل السور حراس، وهي عملية قَتل للمسجون على مراحل، إنها الموت نفسه ولكن بالتقسيط المريح!

ولكن أحقر ما في السجن هو السجن الانفرادي غير أن الذين جرَّبوا السجون مع الآخَرِين، يكتشفون بعد فترة أن للسجن الانفرادي ميزة. ولأنه ميزة، فهو وقف على المسجونين في قضايا رأي، أو قضايا قَتْل، أو قضايا أخرى، شرط أن يكونوا من الأثرياء المُمتلئِين!

ولقد سُجِنْت عدة مرات. ولكن لم تُتِح لي الظروف أن أرى السجن الحقيقي … إلا في المرة الأخيرة ففي المرات السابقة، كنتُ واحدًا من ألوف رجال الصحافة والإعلام، والمشتغلين بالرأي وأمور السياسة. ولم أتعرف رغم محاولاتي الكثيرة على مسجون واحد من هذا الصنف الذي اعتاد الإجرام، وأصبح التردد على السجون بعض مشاكله، وبعض هواياته!

ولكن في سجني الأخير، قُدِّر لي أن أتعرَّف على عالَم، كنت أذهب إلى قبري حزينًا لو متُّ دون أن أراه. عالَم النَّشَّالين والقَّوادين واللصوص حُثالة القاهرة يضمها سجن واحد!

ففي يوم ١٦ ديسمبر ١٩٧١م، حملتني سيارة مع بعض المحكوم عليهم إلى سجن القناطر، وهو سجن أكثر قسوة من سجن الباستيل؛ لأنه خَدَّاع، مظهره من الخارج يُوحِي بأنه مكان شاعري، يصلح لتجوُّل العشاق والمحبين، فأشجار السرو العالية تُخفِيه عن العيون، وأشجار الجميز العتيقة تحفُّ به من كل جانب، والرِّياح المنوفي يتهادى تحت أقدامه مُعشوشِبًا مُخضوضرًا مُنحدرًا نحو الشمال.

ولكن الذي يَلِج البوابة الخارجية، سيجد نفسه فجأة في مكان أشبه بمعسكرات الاعتقال. أسوار غليظة تعزل السجن عن العالم، وأبراج حراسة مزوَّدة بالكشافات، والحرَّاس مزودون بالمدافع الرشَّاشة. وفي فناء السجن يتجوَّل الحراس وقد نَزَع النظام الصارم المفروض على السجن قلوبهم من صدورهم وتسلَّحوا بالعِصيِّ الغليظة، والسياط. ومع الحراس تتجوَّل عشرات من الفئران الضخمة التي تفر القطط من أمامها وتفسح لها الطريق، وتضرب لها تعظيم سلام. وهي تَقرض كل شيء. خشَب المكاتب والمَقاعد وأبواب الزنازين، وتَتحوَّل في النهاية إلى طعام يشارك في حل أزمة اللحوم في داخل السجن فالمَسجونون القدماء يَنصِبون الفخاخ لصيدها وشَيِّها على النار وأَكْلِها.

ويُقسِم الذين شاركوا في وجبة الفئران هذه أنها ألذ ألف مرة من اللحوم التي تقدمها إدارة السجن.

وبالرغم من أنني لم أذُق طعم الفئران، إلا أنني أستطيع — وأنا مرتاح الضمير — أن أقسم معهم. فهذا الشيء الذي تَجلبه الإدارة تحت اسم لحم … لا يمكن أن يكون لحمًا، إلا إذا كان وارد المقابر. وإلا فدلوني على لحم يُباع في أي مكان على أرض مصر ثَمنُه ثلاثون قرشًا مصريًّا للكيلو الواحد، في الوقت الذي يُباع فيه خارج السور بجنيه ونصف. أما الطبيخ فهو مزيج من أعشاب وتراب وطين وأشياء أخرى لا داعي لذِكْرها. أما الحراس فَهُم بقايا العهد الإنجليزي الملكي عندما كانت السجون تَتبَع الخاصة الملكية، وكانت الأشغال الشاقَّة هي العمل في مزارع المَلِك. وحتى الإصلاحيات التي قامت بها الثورة لم تلقَ ترحيبًا من جانب هؤلاء الحراس. ولقد قاوَموا في البداية ثم استسلموا مَقهورِين. ولقد نفخ أحدُهم في وجهي ذات صباح وهو يَبثُّني شكواه من الحال السيئ التي آلت إليه السجون بعد الثورة: هيه دي سجون! دي جَناين، زمان كان الخير كثير، وكانت السجون

سجون، وحياة سيدي المدبولي. العسكري مننا كان يقتل المسجون ويدفنه ولا من درى ولا من شاف!

ولكن بعد فترة اكتشفتُ أن هؤلاء الحراس ليسوا بهذه الدرجة من الأهمية التي يدعونها أحيانًا، وأنهم أكثر غُلبًا من المساجين أنفسهم، وأكثر منهم تعاسة. وأن الحل والربط في يد عُتاة المجرمين داخل السجن. هم الذين يسيطرون على السجن ويديرون الأمور فيه على هواهم. وفي استطاعة أي مسجون عادي ومُستعِد لدفع الأتعاب أن يُمزِّق أوراقه داخل السجن وفي استطاعته — أيضًا — أن يَخرج إفراجًا قبل الموعد. بل وفي استطاعة أي مسجون ثري لا يرغب في تَحدِّي القانون، وفي الوقت ذاته يريد أن يعيش حياته … أن يصنع ما يحلو له داخل السجن وخارجه، فهو ينام مرة كل أسبوع مثلًا في بيته. وهو يعيش داخل السجن بشكل أفضل من العيشة التي يحياها مدير السجن في الخارج. وبعض تجار المخدِّرات الذين يَقضُون مدة العقوبة يستخدمون داخل السجن أكثر من خادم. وبعضهم يقضي المدة كلها داخل مستشفى السجن، حيث يقضي الليل كله في لعب الورق وتدخين الحشيش، ويقضي نهاره نائمًا يحلم أحلامًا ممتاز لذيذة، أما طعام هؤلاء فهو وارد الخارج دائمًا، وسجائره من صنف أمريكي وثيابه من أفخر الأقمشة وإن كان لها شكل ملابس السجن.

واكتشفت — أيضًا — أنه لولا إكراميات هؤلاء المساجين الأثرياء لمات بعض الحراس جوعًا. وتستطيع أن تحل مشاكلك كلها إذا لجأتَ إلى العصابة، وتضيع تمامًا إذا لجأتَ إلى الإدارة، وكل شيء له عند العصابة ثَمن؛ العيشة الطيبة لها ثَمَن، الخروج من السجن له ثَمَن، السهر خارج الزنزانة له ثَمَن، وحتى قَتل أحد أعدائك داخل السجن له ثَمَن، ولكن حَذارِ أن تتعامل مع العصابة، ثم تتوقَّف، وحَذارِ أن تَعِد ثم تُخلِف، وحَذارِ أن تُحدِّد لهم ثَمنًا ثم تدفع أقل، فهؤلاء المجرمون، قُطَّاع طُرق، قتلة بني آدم، مَصَّاصُو دماء البشر، إلى آخر هذه الأوصاف والألقاب والنعوت، لا يستخدمون في المُعاملة إيصالات أو شيكات ولكن تكفيهم كلمة شَرَف!

أغرب شيء أن الواحد فيهم إذا وعد وعدًا فهو على استعداد لأن يَفقِد روحه في سبيل تنفيذه. وهم جميعًا، والقتلة منهم خصوصًا، يتصرَّفون كأنبل فُرسان العصور الوسطى!

ولقد وعدني أحدُهم مرة بشراء لحوم من الخارج، ونجح في جَلبِها داخل السجن ولكنه أثناء قطعه للفناء في طريقه إلى العنبر، فوجِئ بموكب تفتيش على رأسه وكيل مصلحة السجون، ومدير السجن، وكل هيئة الضباط، ولما كان الشيء الذي يحمله بدوي

— هذا اسمه — يبدو مريبًا، فقد فَتَّشوه وصادَروا اللحم ثم أرسلوه إلى التأديب ليقضي فيه أسبوعًا. ولكن بدوي سعى بعد ذلك حتى حصل على كمية اللحم المطلوب ومن نَفْس الصنف، ورفض أن يتقاضى مليمًا؛ لأنه كان قد تقاضى ثَمَن اللحم المُصادر، قِيَم ربما اختفَت في الحياة خارج الأسوار، ولكنهم داخل الأسوار ما زالوا يحافظون عليها!

واكتشفتُ — أيضًا — أن السجن جزء من الحياة، وما يجري خارج الأسوار يجري مثله وبالضبط في السجن. وإذا كان خارج السجن أثرياء يَموتون من التُّخمة، وفقراء يموتون من الغَم، وإذا كان في الخارج أصحاب نفوذ وأصحاب عَيا، وإذا كان هناك أبناء أكرَمِين وأبناء كَلْب ... وإذا كان هناك تَسيُّب وسرقة ونَهْب ونَصْب، وإذا كان هناك فساد وأشياء لا تُرضِي الرَّب ولا تُرضي العبد! ففي السجن — أيضًا — تدور هذه الأشياء بالتمام والكمال، وبتركيز أشد، مع فارق بسيط هو أن نُزلاء السِّجن أصدق وأشرف.

ففي الخارج يرفع النَّصاب عادة شِعار الشرف، ويرتدي الجَبان زِيَّ الشجاعة، ويتغنَّى البخيل بالكرم. ويتَّشِح السافل بمَكارم الأخلاق، ولكن في السجن، كل شيء ظاهِر ومكشوف وعلى عينك يا تاجر! وهم عندما ينادون الآخَرين، ينادونهم بأسمائهم وصفاتهم دون تزويق ولا رُتوش، فاروق النَّصَّاب، وإسماعيل القَوَّاد، وسيد الحرامي، وإبراهيم مُخدِّرات!

وها أنا ذَا الآن، وبعد أن تردَّدتُ على جميع السجون الحربية منها والمدنية، وبعد أن ذقتُ جميع أنواع الصَّفَعات والشلاليت، ومارستُ الأشغال الشاقَّة في صحراء الواحات؛ أستطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير: إن السجن ليس رادعًا وليس وسيلة للعقاب. لقد اخترع الإنسان السجن ليقضي على الجريمة، ولكن ها هو السجن قائم، والجريمة موجودة، يسيران معًا، جنبًا إلى جنب ولا يلتقيان، كأنهما شريط سكة حديد، يُكمِّلان بعضها ولا يتعارضان.

وأعتقد أن الإنسان لا بد أن يسعى لاختراع بديل آخر، إذا أراد أن يقضي على المجرمين والإجرام!

وشيء آخر. نزلاء السجون في بلد كمصر، هم هم لا يتغيرون، دليل أن المجتمع ثابِت لا يتحرك، والأوضاع السائدة فيه تجعل الناس أشبه شيء بقطع الشطرنج ... أحصنة وبعضهم عساكر، ولا سبيل إلى تبادُل المراكز، أو تغيير الأدوار.

ثم شيء آخر ... وأخير ... لقد كان القصد من بناء السجن، كما هو مكتوب عليه بحروف بارزة أعلى البوابات، وعلى الأسوار «السجن تأديب، وتهذيب، وإصلاح» ولكن يبدو أن الأعمال ليست بالنِّيَّات في مصلحة السجون؛ لأن السجن تحوَّل بالفعل إلى تحطيم، وتعذيب، وإفساد.

على أية حال، الفارق بسيط، هو أن نزلاء السجن أصدق لقد تردَّدتُ على السجون ثلاث مرات. وعندما استقبلني عم عبد القادر شاويش سجن القناطر آخر مرة، صاح في وجهي بانفعال صادق ... «إيه ده يا بيه، إنت جيت تاني، إنتو بقيتوا عاملين زي الحرامية، ساعات بيخرجوا، لكن دايمًا بيرجعوا تاني»!

ولستُ نادمًا الآن على شيء مما حدث. ولا أذكر من الأيام إلا الأشياء الجميلة، والذكريات الحلوة. أما الإساءة والإهانة فقد تركتُها مع ملابس السجن عند الباب. ولقد حضرت عدة شخصيات في نفسي — التقيتُ بها ذات يوم في سجن القناطر — قَتلة ولُصوص وقطاع طُرق ونشالون ومتشردون، حُسني أبو سداح، وفتحي الشرقاوي، وعاشور، وبدوي، ومصطفى الكرداسي، وسيد السوري، وعلى أبو الغيط، كل منهم يصلح فصلًا، وكل منهم له حكاية، وكل منهم، لو لدينا حركة فنية حقيقية لصار فيلمًا يكسب الأوسكار!

وسأحاول قدر الطاقة أن أكتب ما وَعَت الذاكرة عن كل منهم. وأن أقدم ما احتفظَت به النَّفْس من ملامح لنفسيات هؤلاء الرجال الذين حكمَت عليهم الظروف أن يقضوا العمر في زنازين ضيِّقة خَلْف أسوار عالية، ومع حراس أغلب الظن أنهم سيحشرون يوم القيامة في زمرة الحمير!

وتسألني، وماذا استفدت من السجن؟ وأقول: لا شيء، ليس تجربة مفيدة، لأن التجربة الحقيقية في الخارج، حيث الحياة عريضة والحركة سريعة، والاختبارات متعدِّدة، ولكن السجن، يوم واحد، ممل، ومُكرَّر وكئيب، غير أني أستطيع أن أقول أيضًا: إن تجربة السجن مفيدة، وضرورية، بشرط أن تحدث مرة واحدة، ولفترة قصيرة! بقي أن أقول: إنني دخلتُ السجن ثلاث مرات ولأسباب سياسية، وفي ظل نظام واحد، ولثلاثة أسباب تختلف، أو من أجل ثلاثة مواقف مُتعارِضة.

في المرة الأولى، في نحر شباني سُجِنت لأنني ضد الحكومة، في المرة الثانية سُجنت لأنني — مثل طنجة — على الحياد. لا مع الحكومة ولا ضد الحكومة! في المرة الأخيرة سُجِنت لأنني مع الحكومة، كالموت يدرككم أينما تكونوا، كالخزف ويل له إن وقع على الصخر، وويل له إن وقع الصخر عليه.

وكان أول مَن عرفتُه هو حسني أبو سداح، وهو مجرم عريق مارَس كل أنواع الإجرام، بدأ نشالًا، ثم مشاغبًا، ثم رئيسًا لعصابة تخطف الأطفال، ثم تاجِر مخدرات، ثم أصبح السجن محله المختار والإجرام صفته ووظيفته. وهو طاف بكل السجون والليمانات. من ليمان طره الرهيب إلى ليمان أبو زعبل، حيث الخارج مولود والداخل مفقود. وعندما فَتح

باب زنزانتي وألقى نظرة خاطفة على الوافد الجديد، كان قد انقضى عليه وراء أسوار السجن ثلاثون عامًا بالتمام والكمال.

كان حسني أبو سداح مُغضَّن الوجه، بارز الوجنات، عيناه باهتتان ساكنتان مُحدِّقَتان في لا شيء كأنهما عَيْنا سمكة ميتة! وعندما خطا خطواته الأولى داخل السجن، كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها والمعارك الطاحنة تأكل زهرة شباب العالم، والنار مشتعلة في جوانب العالم الأربعة. ثم انتهَت الحرب العالمية، ونشبَت حرب فلسطين، ثم احترقت القاهرة. ثم قامت الثورة، وخرج الملك فاروق مطرودًا، وجاء محمد نجيب، ثم خرج محمد نجيب وجاء عبد الناصر، وحدث عدوان ١٩٥٦م، وقامت الوحدة، وفَشلت الوحدة، ودارت الحرب في اليمن ثم جاء عدوان ١٩٦٧م، ثم جاءت حرب الاستنزاف، ثم سكتَت المدافع فترة، ورحل جمال عبد الناصر، وجاء أنور السادات. كل هذا حدث، وحسني أبو سداح في السجن لا يدري شيئًا عمَّا يدور خارج الأسوار.

الحكومة عنده هي مأمور السجن، والشعب هم النزلاء، ولكن حكومة مصر التي خارج السور، فعلمها عند ربي، وسيأتي يوم تأتي فيه الحكومة هنا في السجن، هكذا حدث من قبل، وحدث أكثر من مرة، وهو لا يعرف السبب ولا يُدرِك الحكمة، ولكن هكذا حدث وهكذا يحدث.

– ومفيش حد يا أستاذ أحسن من حد، أحمد زي الحاج أحمد، وكل شوية بيجيبوا حكومة يسجنوها هنا.

– تصدق بالله، إن وزير الداخلية اللي فات كان مسجون مَعايَا هنا وكان بيحشش معايَا، راجل آخر مزاج. هكذا بدأ حسني أبو سداح حديثه معي، عندما عرف أنني مسجون سياسي وأن تهمتي هي محاولة قلب نظام الحكم.

– أهو انت من غير مؤاخذة غشيم، لو انا مطرحك كنت قلبته، وعلى كل، ما يهمكش، مفيش حاجة بتفضل على حالها، كل شيء ينقلب. حكمة يا أستاذ!

عصير الحكمة التي وصل إليها أبو سداح أنه لا شيء يبقى، ولا دوام لأي شيء، كل شيء يقوم ومعه عوامل فنائه. وكل شيء إلى زوال، ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك.

– تصدق بالله، كان فيه واد ضابط في سجن طُره عامل قُمع قوي. وكان موقف السجن على رجله. اتنقل م السجن وفات شهرين وبصِّينا لقيناه داخِل علينا، مسجون زينا.

ويصمت أبو سداح صمتًا بليغًا، ويلعق شفتيه بلسانه ثم يجذب نفسًا عميقًا من السيجارة قبل أن يستطرد: تصدق بالله! نهار ما دخل السجن أخذ ضرب على قفاه ما يخدوش حرامي في مولد.

كان أبو سداح قد اكتسب حقوقًا داخل السجن. بسبب خِبْرَته وعشرته الطويلة.

كان قد أصبح وكيل سجَّان، يحمل عنه المفاتيح، ويجبي الإتاوات المفروضة على المساجين «عشان الأفندي السَّجَّان» وكان أول من يخرج من الزنزانة في الصباح، وآخر من يدخل في المساء. وكان صديقًا لكل الحراس، فهو أقدم من الجميع، وكان موضع احترام من الضباط؛ لأن البيه مدير السجون، تعلم ألاعيب السجن وعرف خباياه على يد أبو سداح.

وكان يُتاجِر في اللحوم والبقول داخل السجن ودائمًا كان يوزِّع الحشيش على أصحاب المزاج. وكان يربح كثيرًا دون أن يتعرَّض مرة واحدة للعقاب. ففي كل مرة تضبطه إدارة السجن، كان يخرج براءة. لأن المادة التي وُجِدَت في حوزته، كانت خالية تمامًا من مادة الحشيش، وكانت أعماله الواسعة المتعدِّدة تستغرق وقته كله، ولكنه أحيانًا كان يختلس لحظات قليلة يستريح فيها، وعندئذٍ كان يلجأ لأحد المساجين الذين يُجيدون القراءة والكتابة ليكتب له عريضة لرئيس الجمهورية، ولم يكن يقبل أقل من رئيس الجمهورية ليرفع إليه شكواه. وكانت شكواه تنحصر في أنه رجل عجوز وأنه قضى في السجن دهرًا طويلًا، وأن كل ما يرغب فيه هو قرار جمهوري بالإفراج عنه حتى يتسنَّى له أن يموت في بيته وبين أهله.

وأحيانًا كنتُ أسأله بعد أن أكتب ما يمليه عليَّ: وبيتك فين يا عم حسني؟

وكان يصمت فترة، ثم يقول: والله مانا واخد بالى يافندي، أهو كان في حتة كده في مصر، وبعدين سمعت أنهم هدوه، أصل الجماعة بتوع الثورة هدُّوا مصر كلها، بيقولوا إنهم عملوا كورنيش، صحيح الكلام ده يافندي؟

والحقيقة أن حسني أبو سداح لم يكن له أي بيت، ولم يكن له أي أهل. وعندما دخل السجن كان له أخ غير شقيق ظل يزوره بانتظام لمدة سنتين، ثم تباعدت الزيارات بعد ذلك، ثم انقطعت تمامًا واكتفى بالمراسلة، ثم انقطعَت المراسلات بينهما وانقطعت اخباره تماما. وبعد أعوام طويلة سمع أبو سداح بالصدفة خبرًا عن أخيه، كان في محكمة القديمة، عندما شاهد رجلًا في المحكمة كان يسكن إلى جوارهم وعندما سأله عن شقيقه وأين ذهبت به الأيام؟ قال الرجل كلامًا مبهمًا مضغوطًا، فقد كان الرجل عجوزًا، وكان ضعيف البصر، ثقيل السمع وربما لم يسمع بالضبط سؤال أبو سداح، وربما لم يُحدِّد بالضبط من يكون السائل، ولكن أبو سداح فهم هكذا بالفهلوة وبالحداقة.

– مات في بورسعيد سنة ٥٦، إيه اللي ودَّاه هناك ما عرفتش؟ أحيانًا أخرى كان أبو سداح يذكر طفولته، في تلك اللحظات كانت تتغير ملامح وجهه فتأخذ شكلًا أحسن ويصبح أكثر وسامة، وأكثر نضارة. كان يذكر أمه بالخير.

– ست طيبة الله يرحمها.

دوَّختها معايا، لكن كنا عيال بقى هانعمل إيه.

ويضحك أبو سداح، ويفتح فمًا واسعًا مهجورًا تبدو فيه بعض الضروس المتآكلة التي دبَّ فيها السوس، ثم يضرب جبهته براحة يده ضربة خفيفة: مرة راحَت طلَّعِتْني من قسم البوليس كانوا مسكوني تَحرِّي ... ولطمتْ على وشها لما ورم، وقالت لي: حتموت قتيل يا حسني، ومش هاعرف طريق جرتك فين، كانت مَرَة طيبة وعلى نِيَّاتها.

وعندما كانت تتأزم به الأمور وتأخذ المشاكل بخناقه، ويضيق صدره بسبب الغل والغيظ، كان يغلق على نفسه باب الزنزانة ويبكي كالطفل الصغير. ذات صباح ضَبطتُه متلبسًا وهو يبكي وحيدًا في زنزانته الخالية من الأثاث، ولما سألتُه عن سبب بكائه، مسح دموعه بيده، ورسم ابتسامة زائفة على شفتيه، وقال: أبدًا ... ولا حاجة، أنا أصْلِي افتكرت أمي، ماتت وانا في السجن، ولا شفتهاش.

ولكن حسني أبو سداح، يصبح أسعد ما يكون الأربعاء، والسبب أن يوم الأربعاء هو يوم وصول الإيراد. والإيراد هم السجناء الجدد الذين صدَرتْ ضدهم أحكام بالسجن، وغالبًا يكون هؤلاء السجناء من شبان تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والعشرين.

وفي صباح يوم الأربعاء كان حسني أبو سداح يرتدي أفخر ملابسه، ويخرج لمُعاينة طابور السجناء الجدد، وبعد فحص طويل وإلقاء نظرة مُجرِّب عجوز، كان يقع اختياره على صيده الجديد، وغالبًا يكون شابًّا قويًّا مفتول العضل. ودائمًا يحضر أبو سداح أمام مكتب المأمور، ثم، فجأة ... يخلع ملابسه حتى يصبح كما ولدته أمه. ويلقي بنفسه على الولد الذي وقع اختياره عليه، ويصرخ أبو سداح ولا صرخة عنتر في حرب القبائل. ويتوقع السجناء يومًا أسود، فإما أن يحصل أبو سداح على ما يريد، أو تصير مذبحة في السجن، ويصبح يوم المأمور والضباط والسجناء أسود من العنبر، وأثقل من ليل العاشق المكسور!

وكان أبو سداح دائمًا يظفر بصيده، ثم يقضي يومًا أو يومين في هدوء واستمتاع، ولكن سرعان ما تنشب الخناقات بينه وبين الشاب القوي، خصوصًا عندما يكتشف الشاب أنه كان ضحية مقلب كبير بقبوله عرض أبو سداح. وأن هناك عروضًا أكثر إغراء. وعندما يرحل الشاب من زنزانة أبو سداح، وهو دائمًا ينجح في الرحيل، بمساعدة الأقوياء الذين يرغبون فيه، كان أبو سداح يقضي الليل بطوله متشعلقًا كالقرد في حديد النافذة، يصيح

بكلام يقذفه كالحمم، يسب الحكومة والسجن والزمن الغادر، ثم لا يلبث أن ينسى، ويهدأ ويعود إلى عمله الذي اعتاده منذ ربع قرن داخل عنابر الليمانات والسجون.

وعندما يكون السجن هدفًا لزيارة ضيوف أجانب، كان أبو سداح يبدو أسعد الجميع؛ لأنه كان السجين الوحيد الذي يُسمَح له بالبقاء خارج الزنازين. وفي العادة يصحب الضيوف ضابط كبير من مَصلحة السجون. ودائمًا يكون هذا الضابط على علاقة صداقة بأبو سداح، فإذا جاء الضيوف خَف إليهم أبو سداح يحييهم في ذِلَّة تدرَّب عليها وأتقنها.

وكان الضابط الكبير المسئول يُتابع معه الحديث في ود، يسأله عن أحواله، وأحوال السجن، وما آل إليه حال المساجين، وكان أبو سداح يرد بكلام كله نفاق للإدارة، وكيف أن الأمور عال، والأحوال حسنة وكل شيء على ما يُرام. ثم يتطوع — أيضًا — برواية قصة أمام الضيوف، وكيف كان وحشًا آدميًّا ... هاتكًا للأعراض! قابضًا للأرواح! خاطفًا للأطفال! وكيف أن السجن علَّمه وهذَّبه وأدَّبه فأحسن تهذيبه!

ثم يختتم روايته بطلب للضابط الكبير أن يأمر بتحويل الدُّوسيه الخاص به إلى رئيس الجمهورية ليأمر بالإفراج عنه فورًا؛ حيث إنه قضى نصف عمره بين القضبان والأسوار، والزنازين!

وكانت هذه هي مهمة أبو سداح، وهذه هي صفته الوحيدة بالنسبة لمصلحة السجون. عَيِّنة حيَّة تثبت حُسن سير المصلحة، وشهادة «حق» يشهد بها شاهد من أهل الخطيئة والإجرام.

وهي شهادة كاذبة من الأساس، ومن شاهِد زور، ولكن لكل شيء ثمن! وكان الثمن الذي يحصل عليه أبو سداح عقب كل زيارة، هو عدة صناديق من أحقر السجاير، ثم التغاضي بعد ذلك عن كل ما يرتكبه داخل السجن من مخالَفات.

وكان هو عقب كل زيارة، يحكي للناس في السجن تفاصيل المقابلة، وكيف صاح في وجه الضيوف يطالب بحق المساجين، وكيف لعن أبو الضابط ورئيس المصلحة، ورئيس الحكومة. وكيف أن الضيوف صفَّقوا له إعجابًا واحترامًا. ثم كيف وصل الخبر إلى رئاسة الحكومة، وكيف طلبوا «دوسيه» أبو سداح في الحال! وكيف خاف المأمور من الفضيحة، وخاف من بطش أبو سداح، فأرسل له صناديق السجاير لعله يعطف ويرضى.

وفي كل مرة يحكي فيها أبو سداح المقابلة، كان يضيف أشياء ويضع بعض الرتوش واللمسات. وأحيانًا كان يُمعِن في المبالغة، وينسى تمامًا، فيحكى كيف تطوَّرت المناقشة، وكيف وضع أصبعه في عين الضابط، ثم كيف تدخل أحد الضيوف فرماه أبو سداح على الأرض! وكيف خاف المأمور عاقبة الأمر! فجرى هاربًا من الفِناء إلى مكتبه، وكيف اتصل

بمدير مصلحة السجون طالبًا النجدة، وكيف ردَّ مدير المصلحة عندما علم بالأمر: ما حدش له دعوة بأبو سداح، دا الراجل بتاعنا. ثم يصمت أبو سداح قليلًا، ثم يعلق بهدوء: أمَّال ايه، ما هو كلامه مضبوط، دَنَا دخلَت المصلحة قبل منه، هو بقى لواء، وانا لسة مسجون، مش دا طبيخ؟

وكان أبو سداح يختفي أحيانًا فلا يدري أحد أين ذهب، وغالبًا يكون قد اختار لنفسه مهنة جديدة داخل السجن، تتيح له السَّهر في الفِناء أو في ورشة النجارة، فيقضي نهاره نائمًا. وليلة ساهرًا، وكان يبدو في أسعد لحظاته عندما يعثر على عمل من هذا النوع.

– أُمَّال يا أستاذ، أحلى شغل في السجن، شغل الليل، ما تشعرش انك مسجون. تعرف، في السجن من حقك تشوف النهار، طابور شمس مش كده؟ لكن الليل ممنوع عليك. عرفت إيه بقى معنى السجن؟ ماتشوفشي الليل!

وذات مرة، غاب أبو سداح ثم ظهر فجأة، وكان الغضب ينهش قلبه، ويداه ترتجفان، عندما اقتحم زنزانتي على غير موعد، وقال وهو يكاد يجن: كشف الإفراج بتاع ٢٣ يوليو وصل السجن واسمي مش فيهم. وأصل الحكاية أن الحكومة تفرج في عيد الثورة عن المساجين الذين قضوا نصف المدة، بشرط أن يكونوا حَسَنِي السير والسلوك.

وفي كل عيد كان أبو سداح ينتظر كشف الإفراج، وفي كل مرة كان يجده خاليًا من اسمه، ورغم تأكُّد أبو سداح أن شروط الإفراج لا تنطبق عليه. إلا أنه كان ينتظر الكشف، ثم يصر على أن يراه بنفسه ليتأكد من عدم ورود اسمه. وبالرغم من أن المسألة بسيطة ورغم أن الإفراج يتم بشرط، وأن هذا الشرط لا ينطبق على حالة أبو سداح من قريب أو بعيد.

خصوصًا شرط نصف المدة، لأن أبو سداح محكوم عليه بأكثر من مائة عام. وإن كان أحد لا يستطيع أن يعرف كم عدد السنين المحكوم بها عليه، ولأن الحكم بالسجن المؤبَّد صدر ضده أكثر من ثلاث مرات، عدا أحكام أخرى تتراوح بين عشر سنوات وخمس سنوات!

شرب أبو سداح كوب الشاي الذي قدَّمتُه له، وكان قد انتهى من رواية كشف الإفراج واسمه الذي لم يُزيِّن الكشف، ثم قال لي بلهجة طبيعية للغاية: وشوف وِشَّك بخير بقى.

وعندما سألته عمَّا إذا كان ينوي الانتقال إلى سجن آخر قال بنفس اللهجة الهادئة: أبدًا، أنا هاريح نفسي خالص، هانتحر. ورُحت أشرح له كيف أن الانتحار هروب من مواجهة الواقع، وجُبن في تحمُّل المصير، وكيف أن موته يترك أثرًا حتى في ضمير الذين

قتلوه؛ لأن أمثاله ليسوا أكثر من مجرد أسماء في ورق، إثباتها مثل محوها. عندئذٍ هبَّ صائحًا محتجًّا: كلام إيه دا يا أستاذ، دنا عيلتي بره تأكل اللحمة نيَّة. وتصوَّرتُ بالفعل أنه يقول الحقيقة، فربَّما كان وراءه أفراد من أسرته، مجرمون عُتاة يستطيعون الأخذ بالثأر ولكن فوجئتُ به يقول: أنا عيلتي كلها ناس بهوات وأكابر. أحمد أبو سداح كان وزير. والشيخ علي أبو سداح كان شيخ الأزهر، وإبراهيم أبو سداح كان ثورجي كبير قوي، هوه اللي عمل الثورة بتاع عبد الناصر. ولم يهدأ انفعاله، إلا عندما تظاهرتُ له بأنني أعرفهم، وأنني التقيتُ ببعضهم في الخارج. عندئذٍ طابتْ نفسه واستراح. وقال وهو يشعل لنفسه سيجارة: أُمَّال يا أستاذ، واللي خلَق الخلق لازم أخلِّي المأمور ده يندم، ويقول يا ريت اللي جرَا ما كان، إن ما خدوه في حديد، ما بقاش أبو سداح. وعندما استأذن في الانصراف ودَّعتُه والحزن يطل من عيني وصوتي يخنقه الانفعال.

وعلى باب الزنزانة، توقَّف أبو سداح لحظة وقال: بقولك ايه ... إديني علبتين سجاير عشان عاوز أقعد لوحدي في الزنزانة أفكر قبل ما أموت!

وانتشرت قصة انتحار أبو سداح في السجن انتشار النار في الهشيم، حتى الحارس المكلَّف بإغلاق الزنازين. صاح بعد أن أحكم اغلاق زنزانة أبو سداح: ابقَى سلِّم لي على ابويا أمَّا تروح الجنة يا أبو سداح. ورد أبو سداح من داخل الزنزانة: وانت فاهم إن أبوك حيورد على جنة، دا انتو صنف ما ينفعش فيكم إلا الحرق.

وفي المساء، كان المساجين يتشعلقون بحديد الباب، وينادون على أبو سداح بأعلى صوت: يا أبو سداح، إنت لسة عايش! اخص عليك راجل مَرَة.

ولم يرد أبو سداح ذلك المساء على أحد. لدرجة أنني اعتقدتُ أنه نفَّذ وعْدَه، وأنه بالفعل فعلها ومات!

ولكن عندما جاء حارس الصباح، كان أبو سداح هو أول سجين يهرع إلى دورة المياه. وعندما سأله بعض السجناء العابثين عن السر في تأجيل المشروع، أجابهم في وقار: وانتو فاهمين إن انا أَموِّت نفْسِي بلاش، أنا لازم موتي يقلب الدنيا دي كلها.

واكتشفتُ أن أبو سداح على مدى السنين التي قضاها في السجن، كان يعلن عن تنفيذ مشروعه بالانتحار، مرة كل عدة أشهر، وكانت هذه وسيلة لجمع أكبر كمية من السجاير من السجناء الجدد. وعندما كان ينشغل أبو سداح بأمور أخرى، وينسى مشروع الانتحار، كان السجناء يذكرونه بأن الموعد قد فات، وأحيانًا كان يرد عليهم مازحًا: وانتو يعني شايفين المساجين ما شاء الله قوي، دول كلهم شحاتين!

ولقد أُتيح لي أن أرى أبو سداح لآخر مَرَّة في حياتي قبل أن أغادر السجن بشهر واحد. فقد وصل إلى السجن ذات صباح ضابط كبير، ومعه قوة من العساكر وكشف بأسماء السجناء المطلوب ترحيلهم إلى سجون أخرى بعيدة، وكان اسم أبو سداح ضمن الكشف الذي يضم أسماء المطلوب ترحيلهم إلى بعيد. ولم يصدق أبو سداح في البداية ظنًّا أن في الأمر خطأ ما.

وعندما تأكد من أن الأمر حقيقة، هاج كالمجنون، وخلَع ملابسه وألقى بنفسه في المرحاض، وهدَّد كل من يقترب منه بالقتل، وعبثًا حاول المأمور أن يقنعه، وعبثًا فعل الضابط الكبير الآخر. حتى أصدقاؤه من الحراس فشلوا في إقناعه بتنفيذ الأمر. وعندما حاولتُ أنا الآخر صرخ في وجهي: أروح فين يا فندي بقى كمان ... رضينا بالهم والهم ما يرضاش ... أروح فين انا؟! دول باعتينا سجن مقطوع، واللي فيه كلهم فلاحين.

وعندما قلت له: ما هو اللي هنا سجن، واللي هناك سجن برضه.

أجاب صارخًا: يا فندي إنت تعرف إيه في السجون؟ أنا بقالي أربعين سنة في السجن واعرف الفرق إيه! دا احنا قاعدين في قصر هنا. عاوز حاجة تبعت تجيبها. الوارد هنا أكثر م الرايح. دا هناك كل فين وفين لما تلاقى مسجون جديد. طب انا قتيل النهارده، ومش منقول من هنا.

ظن أبو سداح أنه لصِلَته الشديدة بالإدارة ولإخلاصه العميق لمصلحة السجون. فإن الأمر سيمر في هدوء، وقد يصدر قرار في آخر لحظة يعفيه من مشقة الانتقال إلى سجن بعيد.

ولكن لأن شغل الحكومة يجب أن يُنجَز، ولأن أوامر الحكومة ينبغي أن تُنفَّذ. فقد صدرت الأوامر إلى الحراس بالقبض على أبو سداح ومَهما كان الثمن.

وهكذا صرخ العساكر الُمعلَّقِين على الجدران: حرس سلاح ... ودقَّ جرس السجن دقَّات رتيبة سريعة متلاحِقة، ودَوَّت الصفافير تدعو فرقة الُمطارَدة لدخول السجن. ولم أسمع من خلف جدران الزنزانة المغلقة إلا أصوات الشريط الذي يَجري تمثيله في الفناء. صرخات أبو سداح، وفي البداية كانت عالية ومُجلجِلة. ثم نفس الصرخات وقد تلاشت وخفَقَت، ثم هدأتْ تمامًا، وصوت الكرابيج تُمزِّق الجو، ومع الجو تُمزِّق جِلد أبو سداح، ثم شيء ما، ربما جسم إنسان يُجَر على أرضية الفناء. ثم أقدام تركض، وأيدٍ تَرتفع بالتَّحيَّة، وأصوات مُبهمَة تُلقي أوامر، وأقدام تخبط الأرض في انتظار أوامر ... ثم سرعان ما هدأ كل شيء، وأطبق الظلام والصَّمت على الفِناء وعلى السجن، وعلى السجناء ... أخيرًا مضى أبو سداح.

الفصل الثاني

اليانكي

اليانكي هذا اسمه، وهو ليس اسمه الذي وُلِد به، ولكنه اكتسبه من مِهنته. فهو في الأصل بحَّار من بورسعيد كان يعمل على باخرة بضاعة أمريكية ترفع علم بنما تَتسكَّع بين موانئ الشرق الأقصى، وتَقترب مرة كل عام من شواطئ الشرق الأوسط، في خلال رحلتها السنوية إلى أوروبا.

وعندما كانت الباخرة ترسو في ميناء بورسعيد، كان يُغادرها ويبقى في المدينة ينتظر عَودتَها ليعود إلى الشرق الأقصى من جديد! ولأن الباخرة كانت أمريكية؛ ولأن حسين إسماعيل — وهذا اسمه في شهادة الميلاد — كان قد تعلَّم من طول ما عمل في البحار لغة الإنجليز، وبفضل العمل مع البحارة الأمريكان، كان ينطق لغة شيكسبير بلكنة أمريكية، فيبدو وكأنه راعي بقر مُفلِس في فيلم من أفلام هوليوود؛ لذلك أطلق عليه الناس في بورسعيد لقب اليانكي، وصار اللقب اسمه بعد ذلك، ونسي الناس اسمه القديم، حتى هو نفسه لم يَعُد يذكره، وربما كان هو نفسه أسعد الجميع بالاسم الجديد.

وذات يوم جاءت باحرة اليانكي إلى بور سعيد. وارتدى في ذلك الصباح أجمل حُلَّة بحرية لديه، وخرج ولا ماك أرثر خلال حرب كوريا، يده في البنطلون، والسيجارة الأمريكاني تتدلَّى من جانب فمه، ونظارة الشمس البيرسول تغطي عينيه، وتتدلَّى من كتفه حقيبة كبيرة من قماش فاخر، ومعه زميل ياباني يعمل بحَّارًا على نفس الباحرة، آثر أن يقضي إجازته هو الآخَر في بورسعيد ضيفًا على اليانكي!

وكان نهار أغبر! استوقفهما البوليس عند البوابة، وفتَّشهما وعَثر معهما على كميات ضخمة من الحشيش، وبعد أيام قلائل كانَا يقفان معًا أمام القاضي ليصدر عليهما حكمًا بالسجن المؤبَّد، وصرخ اليانكي من هول الكارثة، أما الياباني فقد بدأ هادئًا، ربما لأنه لم يفهم منطوق الحكم، وربما لأنه ياباني من سلالة قوم يَحتضنون الموت وعلى أفواههم ابتسامة فرح. وفي قلوبهم ابتهاج عظيم!

المهم، أن اليانكي عاد ومعه الياباني إلى السجن. ولكن اليانكي لم يكفَّ لحظة عن الصراخ والبكاء واللَّطم كالمرأة الثكلى على الخدَّيْن! ولأول مرة سأل الياباني زميله اليانكي عن الحكم، فأخبره أن الحكم بالمؤبد، معناه السجن مدى الحياة، فإذا كان السجين حسن السير والسلوك، مَنحوه الحرية بعد عشرين عامًا، وإلا تركوه خلف الأسوار ليموت ميتة الكلب الأجرب. وسأل الياباني زميله اليانكي في هدوء: وماذا تنوي أن تفعل؟ وردَّ اليانكي في هياج شديد: سأشنق نفسي وأموت.

وتمتم الياباني: غاية العقل، فليس من الحكمة أن يقضي الإنسان حياته كلها في زنزانة يأنف أن يسكنها خنزير! ولم يُضيِّع الياباني وقتًا، تناول بنطلونًا من بنطلونات اليانكي، وقص منه حبلًا علَّقه في سقف الزنزانة وجاء بمقعد جعله تحت الحبل، وراح يُدرِّب اليانكي على الطريقة المثلى لكي يَشنُق الإنسان نفسه بأسرع الطرق وأحسنها. ثم احتضن الياباني اليانكي بقوة وودَّعه بحرارة، وتواعدَا على اللقاء بعد ساعات في ملكوت السماء. ومضَت لحظات الوداع بطيئة. الياباني هادئ كما هو، ولا يبدو عليه أثر الانفعال، فلا هو حزين، ولا هو آسف! واليانكي دائم العويل والصياح، حتى احمَرَّت عيناه من كثرة البكاء، واحتقن وجهه من شدة الانفعال.

ومر الليل كما مرَّ غيره على سجن بورسعيد. وعندما جاء حارس الصباح يفتح زنزانات المساجين. تَسمَّرت قدماه عند باب زنزانته في الدور الأرضي، وراح ينفخ في صفارته معلنًا حالة طوارئ من النوع الجسيم، وعندما جاء المأمور والضُّبَّاط وهيئة التحقيق، كانت الزنزانة رقم «٩» حيث يقيم البَحَّار الياباني تَغرق في صمت كئيب، والياباني يَلفُّ حول نفسه في الحبل المعلَّق في سقف الزنزانة، وقد أصبح جثة باردة، فارقَتْها الحياة من وقت طويل. وعلى أرضية الزنزانة الباردة. ورقة صغيرة تركها الياباني ... لمن يهمه الأمر. يعلن فيها أنه انتحر؛ لأنه لا يستطيع أن يتحمل مثل هذه الحياة!

وأسرع المأمور ورجاله إلى الزنزانة رقم «١٠» حيث يقيم اليانكي، وفوجئ المأمور بأن حبل المشنقة يتأرجح خاليًا من جثة اليانكي وكان اليانكي نفسه يغطُّ في نوم عميق ويحلم أحلامًا لذيذة، وشخيره يقلق سكان كوكب المريخ!

وعندما استيقظ من نومه، واكتشف أن الياباني قد مات، أصابه الذهول فهو لم يكن يصدق أن إنسانًا ما يُقدِم على الموت حتى ولو اضطرته الحياة إلى قضاء العمر كله في حظيرة للخنازير! ولم تَمضِ أيام حتى تم ترحيل اليانكي إلى الليمان، ونسي تمامًا أمْر البحار اليابان، وانغمس في حياته الجديدة راضيًا بكل شيء. حتى خلال العمل الشاقِّ في

ليمان طره، كان يُوزِّع النِّكات هنا وهناك، وأحيانًا كان يحكي للمساجين عن مغامراته العاطفية، في هونج كونج، وماكاو، وجُزر بحر الصين!

وعندما التقيتُ به في سجن القناطر كان قد مضى عليه نزيل السجن ستة عشر عامًا، وكان قد فقد إحدى عينيه نتيجة شِجار مع أحد الحراس. ولجأ إلى القضاء مُطالبًا بتعويض عن فقد عينه، وحدَّد ١٠٠ ألف جنيه قيمة التعويض، وكمكافأة عن فَقْد عينه ... عهدوا إليه بعمل بسيط في السجن. رعاية كلبة المأمور والعناية بها والترويح عنها خلال ساعات العمل الرسمية في السجن، واعتباره العمل الوحيد الذي يقوم به اليانكي. وهو يكفي لتأديب اليانكي وتهذيبه، ولكي يعود إلى الطريق المستقيم!

ومن خلال كلبة المأمور أصبح لليانكي نفوذ في السجن، بل أصبح نفوذه يفوق نفوذ بعض الضباط والحراس، بل أصبح الحراس يَتردَّدون عليه؛ لأنه كثيرًا ما يختلي بالمأمور، يحدثه في شأن من شئون الكلبة، وكثيرًا ما كان يخرج من حديث الكلبة إلى حديث السجن، وما فيه من مآخذ ومخازٍ وجرائم ومُجون! وكان الحراس الذين يَرتكبون من الجرائم ما يستحق أضعاف العقابَ الذي حلَّ بالمساجين، يُقسِمون للجميع، أن كل أخبار السجن تصل إلى المأمور عن طريق اليانكي، وأن اليانكي هو عين المأمور وأذنه على كل ما يقع ويدور داخل الزنازين. ولم يكن اليانكي يخفي حقيقة دوره، ولم يكن يَهتم بنقل ما يُشيعه الحراس والمساجين بل أحيانًا كثيرة كان يحاول في حديث عابر أن يؤكد الإشاعة ويثبتها عند الآخَرين.

واكتشفتُ بعد فترة، أن الكلبة والإشاعة، هما مصدر رزقه، فباسم الكلبة كان يحصل على أجود اللحوم من المطبخ. وباسمها كان يستولي على أجود أرغفة الخبز من الفرن. وبسبب الإشاعة، كان يحصل على ما يريد من كميات الكيروسين والبقول، والشاي، وكان يحصل من وراء تجارته المحدودة على ما يجعله يعيش بكرامة في غابة سجنه الطويل.

وأحيانًا كثيرة كان يدعوني اليانكي للاشتراك في مباراة تنس الطاولة، مع آخَر من أثرياء المساجين، وكنا نلعب على رهان، ويتساوى الخاسر والرابح في النهاية؛ لأن اليانكي كاد يتصرف في قيمة الرهان قبل أن تبدأ المباراة. ولم تكن تزيد قيمة الرهان عن خمسين سيجارة، ولكنها كانت كافية لتجعل اليانكي أسعد من تاجر ربح في البورصة عدة ألوف في ساعات!

ولكنه ذات يوم أخطأ في تحديد نوعية مسجون جديد وافد على السجن. وهو شابٌّ وسيم يبدو عليه أنه من سلالة مماليك حكموا مصر في العصور الوسيطة. أحمر الشعر،

أزرق العينين. أصفر الشارب، جسمه الممشوق وعضلاته المنتفخة تشير إلى مدى الرفاهية التي تَمتَّع بها في طفولته، وتُحدِّد نوع الطبقة التي تربَّى في أحضانها منذ مولده وحتى لحظة دخوله إلى الليمان، وتوسَّم اليانكي فيه زبونًا من شأنه أن يزيد من دخل اليانكي إذا انضم إلى مباريات تنس الطاولة، وقَبِل الشاب عرض اليانكي شاكرًا، وانضم إلى الفريق على الفور! واكتشف الجميع من أول ضربة للشباب أنه بطل محترف، ثم اكتشَفْنا في نهاية المباراة التي ربحها بسهولة، أنه بطل مصر في اللعبة. وبطل العرب، وأنه ثالث دورة طوكيو، والأول والثاني من بلاد اليابان. ولقد كانت فرحة الشاب لا توصف عندما عرض عليه اليانكي أن ينضم إلى فريق تنس الطاولة ليلعب على رهان. فهو أولًا يضمن الجميع في جيبه. وهو ثانيًا في حاجة إلى علب الدخان. ولذلك، وبعد أن انتهت المباراة اتَّجه إلى اليانكي عقب المباراة وطلب منه عُلب الدخان. وابتسم اليانكي كعادته مع كل زبون جديد لم يفهم بعدُ سِرَّ اللعبة، ولكن الولد الوسيم كان جادًّا أكثر من اللازم، وكان مُصرًّا بشدة على أن يحصل على علب الدخان التي ربحها في المباراة. وأشتد النقاش بينها، وارتفع صوت اليانكي يسب دين السجن والسجناء الأنذال.

وامتدت قبضة الولد إلى وجه اليانكي، ليطرحه أرضًا فاقد الوعي، ولتنطلق الصفافير تعلن حالة الطوارئ، وكانت ضربة قاتلة لم تحطم أسنان اليانكي فقط، ولكنها حطَّمَت مكانته التي اكتسبها في السجن، وقضتْ عليه تمامًا وجعلت منه ملطشة للحراس والسجناء، وحتى كلبة المأمور أصبحتْ إذا رأته، بحَّت في وجهه، وتكاد أن تبصق عليه!

ولكن ... كيف؟ ولماذا حدث التحوُّل الخطير في حياة اليانكي؟ وكيف تحوَّل الزمان؟ والحراس، والسجناء والكلبة عن اليانكي، وقَلَبوا له جميعًا ظهر المِجَن؟

لحظة نشَبَت الخناقة بين اليانكي والولد الوسيم المفتول العضل، كان اليانكي ملك السجن غير المُتوَّج. وكان من خلال كلبة المأمور قد استطاع أن يسيطر على الإدارة وعلى المساجين والحراس، ولكن ضربة واحدة من قبضة الشاب القوي، أطاحت باليانكي أرضًا، وأطاحت بنفوذه في نفس الوقت. والسبب أن اليانكي حاول في بداية المعركة أن يثبت وجوده كمقاتِل، ولكن الولد القوي قطع عليه الطريق تمامًا. وراح يَكيل له الضربات تباعًا، وسقط اليانكي على الأرض أكثر من مرة، ثم سقط أخيرًا وعجز عن الوقوف، ثم صرخ من شدة الضرب، وكان صراخه عاليًا، جذب أغلب المساجين إلى صالة اللعب! ولما تأكد اليانكي أنه خسر المعركة، قرَّر أن ينتقم بطريقته الخاصة، فضرب كلبة المأمور ضربة قوية كسرت عظام ساقها الأمامية وضِلعًا من ضلوعها.

وصرخت الكلبة واختلط صراخها بصراخ اليانكي. وجاء المأمور على صراخ الكلبة، فقد كانت عزيزة على قلبه، وأحيانًا كان يعفو عن مسجون مخطئ إذا توسل إليه من أَجْل خاطر الكلبة! وازداد غضبه عندما رأى الكلبة وهي تَعرُج وقد التصقت بالحائط وراحت تصرخ صراخًا حادًّا، بل إن المأمور الذي كان شديد الاعتداد بنفسه، شديد الغرور، أسرع نحو الحراس فخطف العصا من يد أحدهم، وانهال ضربًا على المساجين بوحشية وبجنون، بل إنه وهو في حومة غضبه، ضرب الحراس أيضًا، وعندما سأل اليانكي عن حقيقة الأمر، أشار اليانكي إلى الولد المفتول العضل، وقال للمأمور: انهال بالضرب على الكلبة، فلما تدخَّلتُ بينه وبين الكلبة، انهال عليَّ بالضرب.

ولم يصبر المأمور حتى يسمع أكثر، وانهال بعصاه الشوم على رأس السجين الجديد فسقط الولد مُغمًى عليه. وعبثًا حاول حراس السجن إفاقة السجين دون جدوى فاستعانوا بالطبيب الذي قرر أن الولد مصاب بارتجاج في المخ، وأبدى الطبيب مخاوفه من أن تكون الإصابة جسيمة، وهمس في أُذن المأمور أنَّ نقْل الولد إلى أحد المستشفيات أمر ضروري، وأثبت رأيه هذا في دفتر السجن وحتى يفلت من المسئولية إذا حدث ومات السجين الشاب! ولسوء حظ المأمور واليانكي معًا، أن الولد كان ابن عائلة لها نفوذ، وهو الذي اختار السجن بنفسه، فقد استُدعي للتجنيد بعد النكسة وذهب على أمل أن يقضي عامًا ثم يترك الجيش ويعود إلى حياته المدنية من جديد، إلا أنه بعد قضاء أربعة أعوام في الجندية اكتشف أنه سيظل تحت السلاح حتى يتم إزالة آثار العدوان، ولما كان موعد الإزالة لا يعلمه إلا الله، فقد قرر الشاب أن يهرب من الجيش، وبعد أشهر سلَّم نفسه مع علمه بالنتيجة سلفًا. المحاكمة والحكم عليه بالسجن لمدة عام. يخرج بعدها إلى الحياة المدنية، وهو الأمر الذي تحقَّق بالفعل!

المهم أن الولد نُقِل إلى المستشفى، وتبيَّن أن إصابته جسيمة سبَّبتْ له شللًا مؤقتًا، مما جعل السجن مقصد عشرات من المفتشين والمحقِّقين، وسقط المأمور في دوامة لا تنتهي، وتحقيقات لا أول لها ولا آخر، وكشفَت التحقيقات عن الحقيقة، كلبة المأمور، ونفوذ اليانكي الذي وصل إليه من خلالها، وكميات اللحم التي كان يستولي عليها من المطبخ، وأرغفة الخبز التي كان يلهفها من المخبز، وإرهابه للحراس والمساجين على السواء.

المهم أن المأمور لم تهتز فيه شعرة لكل هذا الذي سمعه فقد كان على علم بكل التفاصيل ومن قبل أن يبدأ التحقيق. ولكن الذي جعل المأمور يفقد صوابه تمامًا، هو ما شهد به الشهود، أن اليانكي هو الذي كسر ساق الكلبة وليس الولد المشلول!

وهكذا دخلتْ فرقة من حراس السجن ذات صباح زنزانة اليانكي لتُجرِّدها من كل شيء، ولتطبق اللائحة عليها. فلم تترك في الزنزانة إلا بطانية واحدة، فيها من الخروق أكثر مما فيها من القماش. واحتج اليانكي بأنه مسجون درجة اولى، وهي الدرجة التي اكتسبها من طول ما عاش خلف الأسوار ولكن احتجاجاته كلها ذهبت أدراج الرياح.

وتطبيقًا لنص اللائحة التي وُضِعت في عصر الخديوي إسماعيل، أمروا بتخزين اليانكي، وهو تعبير يُطلَق على المساجين الذين لا عمل لهم، ومن ثم ينبغي أن يلزموا الزنزانة وأن تُغلَق عليهم فيما عدا ساعة واحدة خلال النهار.

وأدرك اليانكي أنه سقط في بئر لا قرار لها، وأن السجن الحقيقي قد بدأ الآن، فلم يكن اليانكي كغيره من السجناء. فهو بلا أهل ولا أصدقاء، وهو يأكل عيشه بعرق جبينه، أو بعرق ذكائه، أو بعرق انتهازيته، أو بعرق شطارته، أو بعرق ضميره، المهم أن جزءًا فيه لا بد أن يعرق لكي يأكل عيشه داخل الأسوار.

إنه لا يذكر أبدًا أنه استُدعِي للزيارة كغيره من النزلاء فهو حتى قبل السجن كان قد انقطع عن زيارة حي المناخ حيث يقطن أخوه، وكان أحيانًا يلتقي في بورسعيد بأحد أقاربه صدفة، فيصافحه كما يصافح عابر سبيل، ثم يتركه ويمضي إلى حال سبيله. وكان يباهي الآخَرين، بأن أباه هو البحر وأهله البحَّارة. وزوجاته هن كل النساء اللواتي يَتسكَّعن على أرصفة أي ميناء! ولجأ اليانكي الخبير بأساليب السجناء إلى طريق الشكاوى. فانهالت العرائض على مصلحة السجون تتهم المأمور والإدارة بكل رذيلة، وبعضها كان حقائق، والبعض الآخر كان من نَسْج الخيال. ولكن الإدارة المدرَّبة ذات الخبرة العريقة في عالَم السجون، كانت تعرف كيف تُسدِّد هذه الشكاوي بالشكل القانوني، وبالطريقة التي تجعل الإدارة فوق مستوى الشبهات!

وضاقت الأحوال باليانكي تمامًا، فأعلن الإضراب عن الطعام. وفي العادة يُترَك المسجون المُضْرِب عن الطعام ثلاثة أيام دون اهتمام، فإذا واصل إضرابه بعد ذلك، استدعت إدارة السجن وكيل النيابة لتُحقِّق في أسباب الإضراب، ولكن الإدارة في حالة يانكي تركتْه أسبوعًا كاملًا بلا أدنى اهتمام. والسبب أن المأمور كان شديد الوثوق أن اليانكي ليس مُضربًا بالفعل. وأنه يأكل حتى يشبع أو يشرب الشاي حتى يرتوي! وأن دخله من السجاير زاد حتى خلال فترة الإضراب.

وفي تلك الأيام التي أعلن فيها الإضراب، كنتُ دائم التَّردُّد عليه في المستشفى حيث نقلوه، وكان اليانكي طوال الفترة التي أمضيها في زيارته بالمستشفى، يحكي لي عن أيامه

في بلاد الشرق الأقصى. كيف أنه تاجَر في الأفيون في ماكو، وكيف عشق فتاة في عمر الورد في هونج كونج، وكيف اضطرته الظروف إلى قتل إنسان في سنغافورة!

– تصدق بالله، كنتُ أشهر بحَّار في بحر الصين، وانت تسافر هناك كثير وتقدر تعرف، اسأل عن اليانكي في أَيها حتة، الناس هناك تقولك.

وكان يانكي خلال سَردِه لأحداث قصصه الوهمية، يقوم من فوق سريره، من أمامه وكان ويتمشَّى خطوات حتى يصل إلى سرير مسجون آخر مريض، فيلتقط ثلاث حبات من ثمار التين، يأكلها على عَجَل قبل أن يعود إلى سريره، الرجل العجوز الذي قضى نصف حياته في السجن، يضحك ضحكة متقطعة، وهو يُعلِّق على فعلة يانكي: ما تاخد كام واحدة كان عشان الإضراب بتاعك ينفع. وعندئذٍ كان يانكي يصبح مُعلِّقًا: وهُمَّه دُول هيعملوا إيه؟ أنا باكلهم بس عشان أعرف أشرب سيجارة.

وكان يجلس على سريره ويشعل سيجارة، ثم يبدأ يروي قصة عن بنت صينية عشقها ذات يوم بعيد: كان جسمها مليء يا أستاذ، وكانت هربانة من الجماعة الشيوعية. أصلها كانت بنت واحد مَلك. تصدق باللي خلقك، كانت تُفك العشرة جنيه، ما يقعدوش معاها يومين! كانت آخِر نزاهة وآخر جو. وكانت تشتري لي الحشيش على حسابها، وتقولي اشرب يا يانكي. طب واللي خلقك، المأمور بتاعنا ده كان ما يقدر يكلمها، ولا هيه ترضى تبص لواحد زيه، غير شي زمن!

وأحيانًا كثيرة، كان يذكر الولد الياباني الذي قبضوا عليه في بورسعيد، وحاكموه مع اليانكي.

– كان ولد طيِّب وابن حلال بس كان غشيم، ومش بتاع دنيا. شنق نفسه العبيط.

وذات مرة سألتُه: مش الموت أحسن من السجن يا يانكي؟

ورد اليانكي في غاية الغضب: مين قالك الكلام الفارغ ده؟ ما احنا عايشين آخر حلاوة أهه. فاضل أربع سنين ونطلع، ونركب البحر ثاني، ونسافر، ونبقى آخِر جو!

لقد كان الرجل رغم كل شيء يحلم، لقد فقد عينه، وتحطَّمَت حياته تمامًا، ولكنه لم يفقد القدرة على الأحلام.

– لما أخرج بإذن الله، هاعمل تهريبة واحدة، واكسب لي كام ألف جنيه، وأترك البحر واشتري حتة أرض وأقعد.

وأحيانًا كان يخرج من أحلامه إلى الواقع البائس الذي يحياه.

– ودين النبي لو المأمور ما مشي معايا كويس لأكون عاملها فيه وقاتله. هوه العمر فاضل فيه أد إيه؟ إن شاء الله يا رب يشنقونا!

وذات مرة سألته: وفيها إيه لو اصطلحت مع المأمور؟

ورد في هدوء: مفيش مانع. بس يسلمني الكلبة.

وذات مساء، شعر السجناء بحركة غير عادية في السجن.

دخل المأمور والطبيب إلى الفِناء قبل منتصف الليل بقليل. وصاح مسجون من خلال قضبان النافذة: فيه جِتَّة، ربنا تاب عليها من عذاب السجن، وبتودَّع الليلادي في المستشفى.

وفي الصباح عرفنا أن اليانكي داهمَتْه نوبة قلبية، وأنه يجتاز رحلة خطر شديدة بين الحياة والموت! ورغم أنه في مثل هذه الحالات تُمْنَع زيارة المريض، إلا أن مستشفى السجن تتبع نفس أسلوب السجن الخاص، وضاق المستشفى ذلك اليوم بالمئات الذين توافدوا عليها ليشاهدوا اليانكي وهو يُصارِع الموت. ولم يصمد اليانكي طويلًا. فمات في المساء التالي ... وظل راقدًا في مشرحة السجن ثلاثة أيام في انتظار أن يأتي أحد لاستلام جثته. ثم كَفَّنوه وسلموه إلى حانوتي مصلحة السجون.

ورافقه عشرة من المساجين القُدامى إلى البوابة الخارجية. واصطفَّ شرف من عساكر السجن عند الباب، قاموا بأداء التحية الأخيرة لليانكي البحَّار المُغامِر القديم الذي طاف حول الدنيا، قبل أن تغرق سفينته في قاع السجن.

الفصل الثالث

سيد الحليوة

لحظة وضعتُ قدمي في السجن، كان قد مضى عليه تسعة عشر شهرًا. وكان قد مضى عليه منذ ولادته تسعة عشر عامًا لا تزيد!

وعندما رأيتُه في فِناء السجن أول مرة، كان يبدو كتلميذ في المدرسة الثانوية، وكان يرتدي بدلة حسنة الصنع، جيدة القماش، ويرسل شعر رأسه على مُوضة هذه الأيام. ولعنتُ الحظ الذي قذَف بمثل هذا الصبي الوسيم إلى حيث القيود والقضبان! وتصوَّرتُ أنه رُبَّما أخطأ في المدرسة، فضرب زميلًا له أو اعتدى على مُدرِّس من المدرِّسِين، ربما تورَّط في سرقة صغيرة، ربما كان يلهو فتجاوَز بشقاوته الحدود المرسومة!

ولكني كدتُ أُجن عندما علمت أن الولد الصغير قاتل، وأنه قَتل شقيًّا شهيرًا في منطقة تمتد من أبو صير إلى سقارة إلى الحوامدية، وهي المنطقة التي أطلق عليها بعض رجال الأمن اسم مثلث الرعب.

وأصل الحكاية أن الولد الوسيم الصغير، كان في الرابعة عشرة من عمره، عندما خرج أبوه ذات مساء من قريته سقارة قاصدًا إلى قرية أبو صير، فقد كانت ٣٧ هذه عادته كل ليلة جمعة حيث يقضي شطرًا من الليل عند بعض الأصدقاء يشربون الشاي، ويُدخِّنون الجوزة، ربما يلعبون الورق. ثم يعود عند منتصف الليل وحده بين الحقول إلى سقارة. وأحيانًا في ليالي الصيف النَّدية، والجو حلو، ونسمة هواء طرية تهب من ناحية الصحراء المُجاورة، كان الولد السعيد يرفع عقيرته بالغناء. فقد كان يتمتَّع بصوت جميل، أحيانًا كان يستخدمه في الغناء في أفراح الفلاحين، ولياليهم المِلاح.

والرجل نفسه كان وسيمًا كسيدنا يوسف، ملامحه ليست شبيهة بملامح الفلاحين، فالعيون زرق والشعر أصفر. والبشرة بيضاء ... ولا أحد في القرية كلها يدري من أين جاء، فالبعض يؤكد أنه من بلاد في ريف المنصورة. وأنه من نسل عساكر فرنسا الذين

كسرهم عسكر شجرة الدر وأَسروهم مع ملكهم لويس التاسع، ثم وزَّعوهم على بيوت الفلاحين كعبيد، ولكنهم اعتنقوا الإسلام بعد حين وتزوَّجوا من نساء الفلاحين وأحيوا منهم نسلًا يُضرب به المثل في الوسامة والجمال، والبعض يؤكِّد أنه ابن سائحة خوجاية جاءت إلى مصر فعشقَت الأعرابي الترجمان، وحملَت منه سِفاحًا وكان هذا الرجل هو ثمرة هذه العلاقة المحرَّمة!

ولكن عجائز القرية وشيوخها يُؤكِّدون أنه ابن امرأة كانت تعمل غازية في الأفراح! وأنها كانت غجرية تعيش خارج القرية، وأن الإنجليز عندما اجتاحوا القرية خلال ثورة ١٩١٩م. لم يجدوا امرأة تُطارِحهم الغرام إلا هذه الغجرية. وأن ثمرة هذا اللقاء هو هذا الشخص نفسه، الذي كان يتمتع بوجه جميل وصوت أجمل من وجهه.

المهم … الحكايات عن أصله وفصله كثيرة، والإشاعات أكثر. ولكن المؤكَّد أنه كان رجلًا طيب القلب، وكان فنَّانًا على نحو ما، ولم يكن بينه وبين أحد عداوة. ولذلك كان يسرح وحده بين الحقول دون خوف، إلى أن كانت تلك الليلة المشئومة، حين عاد من سهرته المألوفة. وعند نقطة يضيق فيها الوادي وتضيق عليها الصحراء، انفرجَت أعواد الذُّرة عن ماسورة بندقية، انطلقت منها رصاصة اخترقت قلب الرجل الطيب، فتكوَّم على الأرض دون أن يَتفوَّه بكلمة!

وما أشد الغموض الذي يكتنف مصرع رجل من هذا النوع. فلا خصومات ولا حزازات وليس لديه ما يجعله على طَمع أو حسد من أي نوع! ولكن جموع الفلاحين لديهم حساسية خاصَّة قادرة على اكتشاف الحقيقة. فلم يكد يمر أسبوع حتى تهامَس الناس في قرية أبو صير وفي القُرى المجاورة بأن القاتل هو عليوة. وأن السبب وراء الجريمة هو زوجة الرجل القتيل؛ فالزوجة جميلة، عُودها ملفوف، وعيناها وسيعتان، وشَعرها ينسدل على ظهرها، وضحكتها عالية، ورنينها يدغدغ الأعصاب، وعندما عرض نفسه عليها، تَمنَّعت وتدلَّلت، وظن عليوة أنه موقف تجيده النساء ولكنهن لا يلبثْنَ أن يَسقطْنَ.

ولكن عليوة فوجئ بأن المرأة مُصرَّة ومتشبِّثة، وعندئذٍ قرَّر إزاحة زوجها عن الطريق؛ كي يخلو له الجو، ويفوز بالزوجة عنوة أو سلامًا، فلا شيء يهم وليس هناك أي فرق! والناس الطيبون في قرى الجيزة قالوا إن عليوة هو القاتل فعلًا، ولكن ليس وراء الجريمة أسرار؛ فقد كان عليوة ينتظر شخصًا ما لقتله، ولكن الحظ ساق القتيل في تلك اللحظة بالذَّات، في هذا الطريق بالذات، فقتله عليوة عن طريق الخطأ ليس إلا!

المهم أن الشاب الوسيم مات قتيلًا، والمهم — أيضًا — أن الأصابع كلها امتدَّت تشير إلى عليوة بالاتهام، وتأكَّد الاتهام عندما أرسل عليوة شخصًا من طرفه سلَّم الأسرة المنكوبة ثلاثمائة جنيه، كتعويض عمَّا أصاب الأسرة من فَقْد الولد، وبدَا للجميع أن كل شيء قد انتهى ... القتيل رحل، والقاتل دفع الدِّيَة، والأم تحاول أن تدبِّر أمورها في هدوء، ولكن سيد الصغير نَجْل القتيل لم يهدأ له بال. أصابه شرود غريب، وقال الفلاحون إن بالولد مَسًّا من عفريت، واعتزل الناس حتى رِفاق الحارَة عَزَف عن صُحْبَتهم.

وبدت عليه ملامح رجولة مُبكِّرة، فإذا مر بجماعة قرأ عليهم السلام. وإذا مات أحد في القرية ذهب لِيؤدِّي واجب العزاء. وكان الولد وسيمًا كأبيه. ولوعًا بالغناء كأبيه! ولكن أحدًا لم يَنتبِه إلى أن الولد الوسيم الفنان يَغلي في أعماقه، وأنه قرَّر أن يأخذ بثأر أبيه.

وذات صباح والشمس تُشرِق في العلالي، وصهد شهر حُزيران يَشوي كل شيء حتى الشَّجر والحَجر! كان عليوة المفتون بنفسه، الواثق ببأسه يتمشَّى أفرنجي على جِسر ترعة العزيزية، وقد تَلفَّح بشاله، ووضَع بندقيته على كتفه، وقد امتد طرفًا شاربيه في الفضاء، عندئذٍ كان الولد السيد الحليوة يقف على جانب الطريق مُستندًا على شجرة، وعندما اقترب عليوة من سِيِّد هتف به في طيبة: كيف الحال يا سيد؟ واقف وحدك ليه ع الجسر؟ أُمَّال فين أمك؟ ولم يَردَّ سيد ولم يتكلَّم، أطلق ستة عيارات من مسدس كان يخفيه في ملابسه، أصابت قلب عليوة فسقط يَتخبَّط في بِركة من دمه! ولم يهرب سيد، ولم يَتحرَّك من مكانه، بل وقف فوق الجثة، ومسدسه في يده، وقدمه تغوص في بركة دم عليوة. وأمام الشرطة اعترف سيد بقتل عليوة. واتهمه بقتل والده، وأضاف أنه بعد أن مات والده بأسبوع واحد، حضر عليوة إلى المنزل للعزاء، ورغم جو الحزن الُمخيِّم على البيت، فقد حاول عليوة مغازَلة الزوجة — أم سيد — واحتضَنَها بالفعل أمام سيد، وهو واقف في الركن! ينظر ويتأمَّل ويرتجف بدنه كله. ولو كان معه مسدس في تلك اللحظة، لأطلقه على عليوة، لو كان معه سكين حادٌّ لغَرزه في صدر عليوة، ولكنه لم يكن يحمل معه شيئًا. ولذلك آثر السكوت حتى تَحين الفرصة!

وحكى سيد، كيف حصل على المسدس، وكيف قرَّر القضاء على عليوة، وكيف تَعقَّبه، وكيف عَرف خط سيره كل صباح، وكيف انتظره ذلك الصباح على الجسر وعند الشجرة، وكيف قتله، وكيف أغرق حذاءه في دمه! وصارت قصة سيد وعليوة، حديث الناس، وأصبحت بابًا ثابتًا في الصحف، ولأول مرة يَلقَى قاتِل عطف الناس. فهذا الولد الوسيم الصغير ثار لدم أبيه ولعرض أمه، وسَرت العدوى من الناس إلى القضاء فحكموا بحبسه

لمدة عامين. واستراح سيد الحليوة، وهو جالس في السيارة من المحكمة إلى السجن، وكانت هذه هي أول مرة في حياته يقع بصره فيها على سجن، وأول مرة يختلط فيها بالمساجين، ودقَّ قلب سيد قلقًا وخوفًا. ولكنَّ سجينًا أبيض اللون طويل القامة، يُزيِّن فمه بأسنان ذهبية، ضحك لسيد في طيبة وربَّت عليه في حنان. وقال لسيد: ما تخافش، السجن مش وحش زي ما انت فاهم. وانا خدَّامك وتحت أمرك، وعندما انتزع الحراس سيد وعزلوه باعتباره صغير السن، وجديدًا — أيضًا — في عالَم السجون أشار إليه الرجل الأبيض ألا يخاف، فسيُدبِّر له كل شيء في الغد.

بدأ سيد الحليوة ليلته الأولى في السجن، وحشروه حشرًا في زنزانة «الإيراد» مع مجموعة المساجين الجُدد، ولكن سيد لم يَنَم طول الليل ولم يغمض له جَفن، فبعد أن أغلق السجان الباب نَشبَت خلافات حادَّة بين بعض المساجين، ودبَّت خناقة حامية بين ثلاثة منهم، وارتفعت المطاوي في الجو، ولَمَعَت السكاكين في الظلام. وسقط جرحى يَعومون في بحر من الدماء. وصرخ سيد الحليوة طالبًا النَّجدة، ولكن لكمة جاءته من الخَلْف أفقدته القدرة على النطق.

وصوت الحارس جاء من الخارج يلعن سَنسفيل أبوه ويأمره بالتزام الصمت، وعندما فتحوا باب الزنزانة في الصباح، اكتشف سيد أن كل ما جرى في الليل قد ولَّى مع الظلام، واكتشف سيد في تلك اللحظة قانون السجن الأبدي. ففي السجن، ويل للظالم والمظلوم. والعقاب ينزل بالضارب والمضروب، والإهانة من نصيب الشاكي قبل أن تكون من نصيب المشكو في حقه! وخاف سيد كما لم يَخفْ من قبل، بل هو خافَ هذه المرة، ولم يَخفْ قبل ذلك قط!

بل إنه عندما تربَّص لعليوة عند الشجرة وأطلق عليه النار وقتله وغمس قدميه في دمه، لم يشعر أبدًا بالخوف، ولم ترتعش عضلة واحدة في قلبه ... وشعر سيد الحليوة أنه وحيد، وأنه ضائع، وأنه في حاجة إلى حماية. لحظة من هذه اللحظات التي يشعر فيها المرء أن كل شيء قد ضاع وكل شيء قد انهار كغريق يَجرفه التيار ويده لا تقبض إلا على الماء، ولا تتشبَّث إلا بالهواء.

في تلك اللحظة هبط عبده الأبيض على سيد ومع عبده حلاوة طحينية وجبن وعلبة سجاير. ولكن سيد الحليوة طلب من عبده الأبيض طلبًا واحدًا لا غير، أن ينقله من زنزانة الإيراد. ولما شرح له عبده أن المسألة عويصة. وأنها تحتاج إلى مبالغ كبيرة. أبدى سيد استعداده لدفع أي شيء مُقابِل الانتقال، وأمهله عبده إلى الغد ليُدبِّر الأمر، ووعده خيرًا ورجَاه أن يكتم الخبر!

وكتم سيد الخبر عن الآخَرين. وبات ليلته قابعًا في ركن الزنزانة، وعندما فتح الحارس الباب كان أول الخارجين، وعندما التقى عبده الأبيض، واستفسر منه عمَّا تم بشأن النقل من زنزانة الإيراد، راح عبده يُعدِّد له المتاعب التي تعترض الموضوع، والمصاعب التي تحول دون تحقيقه. كان سيد يسمع ذلك، ووجْهُه يزداد اصفرارًا، فأملُه في النقل قد تلاشى، ورغبَتُه في النجاة من هذا المستنقَع الذي سقط فيه قد تبدَّدَت.

وهمس في ضعف شديدٍ: يعني مفيش فايدة يا عم عبده؟

فأجاب عبده بِنبرة صوت لا تَنمُّ عن شيء: كل عقدة ولها حَلَّال يا سيد.

– وإمتى الحل يا عم عبده؟

– بكرة ربنا يسهلها.

وظن سيد أن عبده يعني كلمة بكرة بحرفيتها ... ولكن ... بكرة هذا لم يأتِ إلا بعد أسبوعين. كان سيد قد انشوى على جَمْر النار. وما أغرب هذا التكوين الغريب الفريد الذي اسمه إنسان. يقتل سيد عليوة! وهو على استعداد ليقتل ألف رجل! ولكنه لا يحتمل الإقامة يومًا واحدًا في زنزانة الإيراد، ولكن ها هو الفرج أتى على كل حال. وها هو عم عبده يجمع متاع سيد في كيس من القماش، وعندما استوى سيد جالسًا على الأرض في زنزانة عم عبده، اكتشف عُمْق الهُوَّة بين زنزانة عم عبده، وزنزانة الإيراد. هنا كل شيء مُرتَّب وجميل، حتى الجدران مُعلَّق عليها صور لُمثِّلات جميلات، نُهودُهن بارزة، وأردافهن متكورة، ونظراتهن جريئة.

وذهل سيد عندما رأى في زنزانة عبده مَرتَبة جيدة الصنع، وقُلَّة مياه تجعل الماء أبرد من ليالي الشتاء، ووجد موقدًا بأربع شُعلات لإنضاج الطعام، وإعداد الشاي، هل زنزانة عم عبده في نفس السجن الذي يضم زنزانة الإيراد؟ حتى الحراس عند عم عبده أكثر رِقَّة وأكثر أدبًا وهم يتكلمون مع السجناء، ويبتسمون أيضًا، ويضحكون أحيانًا.

ولاحَظ سيد الصغير أن الفروق هنا زالت، فلا فرق بين السَّجان والمسجون، بل أحيانًا المسجون هو الأقوى، وهو الأعز، والسَّجان هو الضعيف وهو الأذل، ولاحظ سيد أيضًا، أنه في موعد وجبة الغداء يجتمع المسجونون والسجناء — ليس كل السجناء بالطبع ولكن بعضهم — يجتمعون في زنزانة عم عبده، يأكلون ويشربون الشاي ويُدخِّنون السجاير ويَروُون النكات!

ولاحظ سيد الصغير أيضًا، أن السجان إذا خرج من زنزانة عبده، خلَع الحزام ورسم على وجهه تكشيرة رهيبة، وضرب بقية السجناء الذين يَتلطَّعون بجوار الجدران.

وارتاح سيد جدًّا للجو الجديد، وللمأوى الجديد، وأدرك أن السجن ليس سيئًا للغاية كما سمع من قبل، وكما تَوهَّم هو نفسه خلال أيام العذاب التي عاشها في زنزانة الإيراد، وبدأ سيد يشعر بالاستقرار، وأخذ يَعُد الأيام التي انصرمت، والأيام التي بقيَت، وصار له أصدقاء في السجن، شُبَّان صغار في مثل عمره، فقد لاحظ سيد أن السجن يكتظ بهذا النوع من الصبية، ولكنهم ليسوا قَتلَة، إنهم فقط لصوص ومجرمون صغار، ولكنهم ظرفاء وأصحاب نكتة حاضرة، وتجربتهم في السجن تجعلهم أكثر جرأة من سيد على مواجهة المشاكل، والخروج من المأزق. واللف حول مواد اللائحة التي تمسك بخناق المسجونين.

ومرت شهور وسيد في السجن ينتظر من يَزوره ولكن دون جدوى، وجُنَّ جنون سيد، فلا يمكن أن تتخلَّف أمه عن زيارته إلا لأمر رهيب، وراحت الظنون تتقاذف سيد الصغير، هل ماتت؟ هل مرضَت مرضًا شديدًا أقعَدَها عن القيام وعن السير وعن المجيء إليه؟

إنها لم تكن تُحب في الحياة أكثر من سيد، وهي التي أطلقَت عليه اسم الحليوة، فما الذي أخَّرها عن زيارة سيد، وهو الذي قَتل عليوة حين مد يده ليتحسَّس جسدها المقدس النبيل؟!

وفضفض سيد بأحزانه وظنونه لعم عبده الأبيض. واستمع عم عبده في هدوء وابتسم في هدوء، وهز رأسه ونطق بالحكمة كلها: يا بني المسجون رِحْته وحشة، ما حدش عاوز يشوفه.

وقال سيد الحليوة: بس انا يا عم عبده، مش مسجون في حاجة عار من غير مؤاخذة، وانا مسجون عشان الشرف، دنا قاتِل وواخد بتاري.

وهمهم عبده وهو يُحرِّك الشاي فوق النار: كله بيتساوى، المسجون مَسجون، إن شاء الله يكون مسجون في إيه!

كانت هذه العبارة هي خُلاصة حِكمة عبده في الحياة؛ فهو سجين مُعتاد التردد على السجون منذ أن كان في عمر سيد. وهو ليس بقاتل. وليس بلص، وليس بغشاش أو نصَّاب أو دجال أو نشَّال، ولا يؤذي أحدًا، ولا يضر أحدًا، ولكنه تاجِر معروف وله زبائن، وتجارتُه من أغلى وأحلى السلع في التاريخ، لأنها سِلَع تتحرَّك وتتكلَّم وتشكو وتضج وتئن وترغب وتجفل وتحن وتغضب وتهرب، فبضاعته هي الإنسان، إنه قوَّاد شهير له في عالَم الليل باع طويل وهو مشهور، أشهر ربما من بعض الوزراء ومن بعض الممثلين، ولكن جهات الأمن لا ترحم، ومع أن رجال الأمن أنفسهم ليسوا فوق مستوى الشُّبهات؛ فَهُم

أصحاب مزاج، وسُمَّار ليالي، ورُوَّاد متعة، وهم أحيانًا يلجئون لعبده، ودائمًا عبده يلبي لهم طلباتهم. ولكن عندما تقع الفاس في الرأس، لا أحد فيهم يعرفه، ولا أحد منهم يُقدِّم له مساعدة، بل إنهم في كل الحالات يعاملونه وكأن أعينهم لم تقع عليه من قبل.

– وتعرف يا بني يا سيد! اللي ما معهش قرش بتاعه هوه، ما يسواش قرش، خُدها حكمة من عمك عبده. وما فيش حد ينفع حد، لا تقوللي أمك ولا أبوك. مفيش غير عينك وعافيتك.

– طيِّب والعمل يا عم عبده؟

– إنت عليك فلوس كثير يا سيد ولازم تدبر نفسك. وسادَ الصمت بينها فترة، قطعه سيد بسؤال حائر: وأدبر نفسي إزاي يا عم عبده؟

وقال عبده على الفور: تفتح مُخك يا سيد، فَتَّح مخك وانت تأكل ملبن.

انقلبت أحوال سيد الحليوة بين يوم وليلة. ها هو الآن يبدو وسط حُثالة المساجين، كأنه طالب ابن ذوات في مدرسة داخلية. البدلة مضبوطة وعلى مقاسه وآخر قيافة قام بتفصيلها فاروق الشامي مقصدار السجن وهو ترزي كان له صيت عظيم في مصر كلها. وكان ترزي الباشوات والأمراء والأعيان وأصحاب الطين. ولكن الشيطان الذي ركب رأسه وحرَّضه على تهريب المخدرات، أطاح به من فوق عرشه وألقى به في السجون خمسة عشر عامًا، وهو الآن يعيش في سجن القناطر يقضي الأيام الأخيرة من العقوبة، رئيسًا لورشة الترزية. ومُتخصِّص في تفصيل بدل البيه مدير مصلحة السجون، والبيه الوكيل، والبيه مأمور السجن، وحضرات الضباط، بل إن نشاطه امتد — أيضًا — إلى البهوات أصدقاء مدير المصلحة، ووكلاء المصلحة، والمأمور.

وهو بالرغم من كونه أعظم ترزي عرفَتْه القاهرة في فترة من الفترات، إلا أن أجره لم يزد عن خمسة جنيهات للبدلة الواحدة التي يقوم بتفصيلها داخل السجن، أما البيه مدير المصلحة. فهو لا يدفع شيئًا؛ لأن البيه المأمور دائمًا يقسم بأن يتولَّى هو الدفع بدلًا من البيه المدير، ولكنه لم يحدث أبدًا أن دفع شيئًا على الإطلاق!

وهو بالنسبة لسيد الحليوة فقد تقاضي نظير تفصيل البدلة خمسين علبة سجاير وهي بعملة السجن تُساوي عشرة جنيهات. دفَعها عبده الأبيض راضيًا.

وعندما رآها عبده الأبيض على جسم سيد الحليوة، شهق من شدة الإعجاب، فالولد الوسيم تحوَّل في البدلة الجيدة إلى شيء أشبه بالممثِّلين. وفي قدم سيد حذاء أبيض، ومن جيبه يطل منديل حريري هفهاف، وعلى رأسه طاقية لها حافة تقيه حرارة الشمس،

واستطاع عبده بنفوذه أن يُدرِج اسم سيد في قائمة المَرضى الذين يُصرَف لهم غذاء خاص. وهو غذاء مكوَّن من بيض وحليب وليمون وشاي وخضراوات طازجة. وهو غذاء مخصَّص للمرضى، ولكن المرضى لم يَحصلوا عليه قط. ومن يريد أن يحصل على هذا الغذاء الطَّيِّب عليه أن يدفع مرتبًا شهريًّا للدكتور لويس طبيب السجن. وهو رجل قبيح الخلقة، قبيح التكوين.

الذي يراه من بعيد يَتصوَّره امرأة حامل في شهرها الأخير، وهو يعيش في سكن خاص مُلحَق بالسجن، ومتزوِّج من سيدة تصغره بعشرين عامًا ثرية ووالدها عمدة في قرى أسيوط بالصعيد.

وهو لم ينجب؛ لأنه فاقِد القدرة على الإنجاب، ورغم أنه طبيب، ومفروض فيه أنه مَلاك الرحمة داخل بيت العذاب، إلا أن المساجين الفقراء يخشونه أكثر مما يخشون الحراس. وويل للمسجون المريض إذا لم يدفع للدكتور لويس. سيضربه لويس حتى يُغمَى عليه. ثم يكتب في تقريره أنه مُتمارِض، فتجلده الإدارة أو تضعه في زنزانة التأديب. وكل شيء عند الدكتور لويس بالثمن: الدواء له ثمن، والإجازة من العمل لها ثمن، والغذاء الطبي له ثمن، والإقامة في مستشفى السجن لها ثمن.

وهكذا حصل سيد الحليوة على الغذاء الطبي. ولم تمضِ أيام حتى أفاد الغذاء الجديد، فتورَّد وجْه سيد الحليوة، فصار أحلى ممَّا كان، ولكن سيد الحليوة كان يشغل باله سؤال عذَّبه طويلًا: أين ذهبَت أمه؟ وأرسل المراسيل، وبعث بالوفود، ولكن لا حس ولا خبر، لقد أصبح دَينُه ثقيلًا لعم عبده الأبيض، ولو جاءت أمه تزوره فسيُسدِّد دَينه عن آخره ... إذْ إنه لأوَّل مَرَّة، يحس أن الدَّيْن أكثر قيدًا على حرية الإنسان من قضبان السجن نفسه! غير أن تفكيره في الدَّين، وضِيقَه به لم يمنعه من مواصلة الحياة على هذا النحو، بل لقد أصبح من العسير عليه أن يعود مرة أخرى إلى زنزانة الإيراد، أو يصعد الدور الرابع، حيث المتسولون والذين لا مورد لهم. وعم عبده الأبيض رجل طيب، وهو يدفع عن طيب خاطر، ربما لأنه صاحب أولاد، ربما كان أحد أولاده يُشبِه سيدًا! وربما لأن سيدًا نفسه صاحب قلب طيب؛ ولذلك وفَّقَه الله في معرفة أولاد الحلال!

ولكن ذات صباح حدث شيء غريب لم يكن يتوقعه سيد. كان يجلس في زنزانة عم عبده، عندما جاء سجين آخَر، ولكن يبدو من منظره وهيئته أنه من الأثرياء. كان يرتدي بدلة لونها في لون ملابس السجن، ولكن قماشها أفخر من قماش بدلة المأمور. ويدخن سجاير أمريكاني فاخرة، وأخرج قطعة حشيش من صنف جَيِّد ألقى بها بين

يدي عم عبده. وراح الاثنان يُدخِّنَان سجاير الحشيش والرجل يختلس النظرات إلى سيد الحليوة. وفجأة قال بدون مناسبة: إنت سيد الحليوة؟

وقال سيد أيوه.

ورد الرجل في هدوء: اسمك مضبوط، إنت حليوة. بصحيح.

وخيَّم الصَّمْت لحظة على الجميع، قبل أن يستطرد الرجل قائلًا: أنا سمعت حكايتك، وانا مبسوط منك، واد جدع، قتلْتَ عليوة ربنا يجحمه في نار جهنم، كان راجل شر، وانا مبسوط منك.

ثم دس الرجل يده في جيبه، وأخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات، وقال لسيد الحليوة: خد دي عشانك.

وأبدى سيد رفضًا في البداية، ولكن عم عبده الأبيض حرَّضه على قبولها: خد من عمك خضير ما تكسفوش.

وعندما مد سيد يده وأخذ الورقة. قال عم عبده الأبيض: دا عمك خضير راجل سيدنا، وتاج رأسنا، وعم الناس اللي انت شايفها دي كلها. ولا فيش حد هنا يرفض له طلب، حتى البيه المأمور بينفذ طلباته، تصدق بالله، هكذا قال عبده وهو يعتدل في جلسته: فيه ناس هنا في السجن، تتمنى تقعد ولو خمس دقائق مع المعلم خضير.

وعلَّق المعلم خضير وهو ينهض: ملعون أبوهم جميعًا أولاد كلب. لم نرَ مساجين مثل هؤلاء من قبل، حتى السجون باظت مثل كل شيء.

وقال عم عبده الأبيض: مساجين زمان كانوا مساجين بحق وحقيق، ومساجين اليوم زبالة.

ولم يعلق المعلم خضير بشيء. ولكنه عندما أصبح على عتبة باب الزنزانة، التفتَ، وقال لسيد الحليوة: ابقى فوت عَلَيَّ في الزنزانة كمان شوية يا سيد، عندي بدلة حلوة تنفعك.

ولم يَرد سيد، ولكن عم عبده هو الذي ردَّ: كمان شويه هيكون عندك يا معلم. ربنا يخليك ويطول في عمرك.

عندما صعد سيد الحليوة على السِّلم الحديدي الدور الثاني حيث يُقيم المعلم خضير في زنزانة بالدور الثاني، شعر أن عيون المساجين تلتهمه، وأحسَّ بأن همس المساجين يدُور كله حوله وبشأنه، كان الدور الثاني في السجن أنظف الأدوار وأكثرها سكونًا.

ففي هذا الدور يقيم المسجونون السياسيون، وهم أقل جَلَبة من الآخرين وأكثر نظافة، ولكن الحراسة في الدور أشد وطأة، وأكثر صرامة، ولما كانت بعض الزنازين غير

مسكونة في الدور، فإن هذه يتم توزيعها على بعض المساجين المجرمين. ولما كان السكن في الدور الثاني ميزة، فقد أصبحت هذه الزنازين وقفًا على تجار المخدرات. إنهم أكثر الناس نفوذًا في السجن؛ لأنهم أكثرهم ثراء. وأعزُّهم مقامًا لدى الإدارة والحراس.

كانت زنزانة المعلم خضير تقع في طرف الدهليز الأيسر. وقبل أن يصل إليها سيد الحليوة، انشقت الأرض عن الشاويش سيف حارس الدور، وهو أضخم حُرَّاس السجن جثة، وأكثرهم عبوسًا، وأشدهم وطأة على الفقراء من المساجين.

وخاف سيد الحليوة من الشاويش سيف، وارتعد بَدَنه كله، وفكَّر في الرجوع من حيث جاء. ولكن صوت الشاويش سيد الذي أصبح رقيقًا كصوت مَلاك بادره قائلًا: إنت جيت يا سيد! دا المعلم في انتظارك، اتفضَّل. وتقدَّم بخطوات عسكرية نحو الزنزانة، ووقف عند الباب وطرقه بأدب جم. وعندما جاء صوت من الداخل يسأل عن الطارق، قال الشاويش سيف: خدَّامك الشاويش سيف يا معلم، وسي سيد الحليوة وصل. عندئذٍ انفتح باب الزنزانة، وظهر منها رجل كالوحش، أضخم بكثير من الشاويش سيف، عضلاته بارزة كأنها كُتل حجارة مركبة ذراعين، ورأسه محلوق بالموس. ونظر للشاويش سيف شذرًا ثم ابتسم لسيد قبل أن يدعوه للدخول.

ما أغرب زنزانة المعلم خضير! وما أشبهها بغرفة في بيت أحد الأثرياء! مرتبة لم تقع عيناه على أجمل منها. وخِزانة لحفظ الملابس مصنوعة في ورشة النجارة داخل السجن، ورفوف عليها عرايس ولعب وتماثيل برونزية، وصورة للمعلم خضير معلَّقة على الجدار. وأطباق صيني وفناجين شاي، وبِدَل السجن معلَّقة على شماعات. ومائدة طعام قصيرة وصغيرة تتوسط الزنزانة، وعليها باقة ورد انتَقَتْه بعناية يدُ خبير من حدائق السجن! والمعلم خضير يتمدَّد بملابسه الداخلية فوق المرتبة يدخن سجاير الحشيش، وفي يده مروحة صغيرة، تعمل بالبطارية، وبدَا عليه أنه مسطول وآخر انسجام! وأشار لسيد بيده أن يجلس، وأفسح له مكانًا بجواره، وراح الرجل ذو العضلات يعد الشاي للمعلم خضير وضيفه الصغير. وبعد أن انتهى من إعداده، قدَّم لهما الشاي في فناجين نظيفة مزيَّنة بالورد، ثم استوى واقفًا وقال للمعلم: أي خدمة يا معلم؟

وقال المعلم وهو يرتشف الشاي بصوت مسموع: خليك واقف بره، وما تخليش حد يدخل.

انزاح المعلم خضير من مكانه وتراجع للخلف حتى التصق ظهره بالحائط، وجلس سيد الحليوة على حافة المرتبة مرتبكًا. وتشاغَل المعلم خضير في لَف السجاير المحشُوَّة

بالحشيش. وعندما انتهى من لفها، من يده بسيجارة لسيد، وقال وهو يشعلها له: إنت مُرتَبِك ليه؟ أمَّال لو ماكنتش قاتِل. شِد م السيجارة عشان تتكيف.

جذب سيد الحليوة أنفاسًا متلاحقة، وتصاعدَت حلقات الدخان في جو الزنزانة، وربَّت المعلم خضير على ورك سيد الحليوة وقال وهو يضحك ضحكة عالية: القاتل ده بيبقى قلبُه جامد، لكن دا انت خِرع قوي. وابتسم سيد الحليوة ولم ينطق، فجذبه المعلم خضير ناحيته، وقبَّله قُبلَة خاطفة على وجهه، ونزع طاقيته من فوق رأسه. وراح يعبث بأصابعه في شعره، ولم يُدرِك سيد الحليوة قَصْد المعلم خضير في البداية، ظن أنه رجل طيب، وأنه يفعل خيرًا لوجه الله. لقد أعطاه عشرة جنيهات، ولفَّ له سجاير مخلوطة. وقدَّم له الشاي، وسيعطيه بدلة جديدة. ولكن الشك لعب في صدر سيد عندما قدَّم المعلم خضير يده وأحاط بها خَصْر سيد، ثم ضمَّه إليه ضمَّة قوية، وقبَّله مرة أخرى. وقال له في لهجة آمرة: قوم يا سيد اقلع هدومك، الدنيا حَر.

واعتذر سيد لأنه لا يشعر بالحر، وقال المعلم وقد تبدَّلَت قسمات، وجهه: طب اقلع عشان تقيس البدلة الجديدة. ورَدَّ سيد بأنه سيُجرِّب البدلة الجديدة في ورشة الترزية، حتى إذا احتاجت لشيء من القيافة أعَدَّها فاروق على الفور. عندئذٍ هوَتْ يد المعلم خضير على وجه سيد؛ فارتمى من شِدَّة الضربة على الأرض، وقبل أن يفيق سيد من هول الصدمة، عاجله المعلم خضير بكف آخَر وكف ثالث، وصرخ سيد الحليوة طالبًا النجدة، ولكن أحدًا لم ينجده، حتى باب الزنزانة ظل مُغلقًا عليه وعلى المعلم. وهتف سيد في توسُّل: أنا في عرضك يا معلم! وركله المعلم بقدمه ركلة أطاحت بسيد عند الباب، ثم هتف على الوحش الرابض عند الباب في الخارج: افتح للكلب دا خليه يمشي.

عندما خرج سيد الحليوة وجد جموع المساجين وقد جذبتهم صرخاته يَقفون في حلقة في آخر الممر، وعندما اقترب منهم سيد، تصاعدت ضحكاتهم وسخرياتهم في الجو. وهتف مسجون عابث: صباحية مباركة، يا بخت صاحب النصيب.

وأسرع سيد مبتعدًا، وهبط السلم بأقصى ما يستطيع، وعندما أصبح في الفناء، غاب في زحام المساجين.

ما أتعس الزمن! وما أقسى غدره! لقد تبدَّلت أحوال سيد بعد هذه الحادثة فأصبح السجن غير السجن، والناس غير الناس، حتى عبده الأبيض كشَّر عن أنيابه، وانقلب وحشًا من الوحوش.

وقال عبده الأبيض وهو يحاور سيد الحليوة: إيه الحكاية والرواية؟ ... ما تَفهِّمْني، عاوز تعيش شحَّات في السجن، واللي يسوى واللي ما يسواش يِدِّيك على قفاك. والَّا عاوز

تأكل لقمة نظيفة، وتلبس هدمة نظيفة، وتصرف قرش نظيف، وأجاب سيد من خلال الدموع التي انهمرَت على خده: أنا عارف إن عليَّ ليك فلوس، لكن أنا هادفعها يا عم عبده.

– وهتدفعها مِنين بقى إن شاء الله؟ أهلك برَّه ما شاء الله قوي. بهوات كلهم ومستوظفين، مش تحمد ربنا أن حظك كويس، والراجل الطيب قلبه انفتح لك. طب ورِّيني واحد كده في السجن مايتمناش نظرة رضا من خضير؟ وتمتم سيد في كلمات متقطعة: أنا مش بتاع الحاجات دي يا عم عبده.

وقال عبده الأبيض: إنت حر، عقلك في راسك تعرف خلاصك ... بس البدلة دي بقى مش بتاعتك، والعشرة جنيه اللي ادَّهالك المعلم خضير مش لك، وانت على كيفك، ما دام انت وش فقر، خليك في الفقر! وانزوى سيد الحليوة بعد أن تَجرَّد من الهدوم والفلوس في الزنزانة.

وعندما فكَّر مرة في الخروج إلى الفناء عَكَمه الشاويش سيف من قفاه، وضربه كفًّا ألقى به على الأرض يتلوَّى من الألم، وهاجمه حتى أراذل المساجين. وفي كل خطوة كان يهجم عليه مسجون قبيح المنظر نتن الرائحة، يحتضنُه ويُقبِّله.

حتى المسجون المجنون الذي كان مجذوبًا من مجاذيب السجن من قبل، هجم عليه ذات مرة، واحتضنه بقوة، ثم وقف يهتف من شدة السرور: مَدَد يا خضير، مدد.

وهان كل شيء على سيد الحليوة. استعذب السجن الانفرادي، واستعذب الجوع، حتى السجاير التي يعشقها، لم تَعُد تروق له، ولكنه ذات صباح دخل عليه بدوي، وهو مسجون محكوم عليه بالمؤبد، وجلس على باب الزنزانة يتحدَّث مع سيد ويُدخِّن، ثم مد له يده بالسيجارة التي معه، ولكن سيد اعتذر. فألَحَّ عليه، فتناول سيد السيجارة وأخذ نفَسًا عميقًا قبل أن يردَّها اليه.

وارتسمت ابتسامة عريضة على شفة بدوي. وزحف على الأرض حتى لامس جسمه جسم سيد، ثم طوَّقه بقوة وراح يُقبِّله كالمجنون، وصرخ سيد صرخات مدوية، وقاوَم سيد بشدة، وبدوي يحاول طرحه على وجهه.

وعندما اقتحم المساجين الزنزانة، كان سيد على وشك الاختناق، وقادَ الشاويش سيف سيد وبدوي معًا إلى الإدارة، وأمام الضابط روى سيد القصة، وأنكر بدوي رواية سيد، وعندما جاء دور الشاويش سيف، ذكر أنه رأى بدوي في زنزانة سيد، وأكد أن بدوي كان خارج العنبر عندما صرخ سيد مستغيثًا، وهكذا وقع سيد تحت طائلة العقاب، وأمر الضابط بحبسه في التأديب لمدة أسبوع.

ومرَّت الأيام على سيد في التأديب، النهار كالليل، فالزنزانة تسبح دائمًا في الظلام، والطعام تأنف الكلاب من تناوله. والرائحة نَتِنة كريهة، كان قبرًا أثريًّا قد انفتح فجأة داخل عنبر التأديب، والسكون شامل ورهيب وعميق حتى خُيِّل لسيد في وقت من الأوقات أنه مَيِّت، وأن الزنازين ما هي إلا مقابر، مدفون بها بعض الأحياء، نتيجة خطأ في تشخيص الطبيب.

ولكن … ما أعظم الراحة التي يحسها سيد، راحة لم يشعر بها من قبلُ حتى وهو يعيش مع أمه وأبيه في سقارة. وعندما تذكَّر سقارة شعر برائحة الحقول تملأ خياشيمه، وتذكر ترعة الذوات التي تخترق القرية، متدفقة بالمياه مرة، راكدة أغلب الأيام. وطاف بخياله نخيل سقارة الشهير المُثقل بالبلح الأحمر، كأن نارًا حامية شبَّت فجأة في أعالي النخيل، وارتسمت ابتسامة على شفتيه الجافتين عندما تذكر جمالات، كانت طفلة ولكن كان لها سلوك النساء. وكانت جميلة، عيناها ضاحكتان، ووجهُها باسم، وشعرها الصغير يرفرف مع الهواء كالطير الجميل، يا لها من أيام بهيجة ولَّت إلى غير رجعة، ودُنيا ذهبت ولن تعود!

وأفاق سيد من أحلامه على صوت يناديه، وخُيِّل لسيد في البداية أن الشاويش جاء بالطعام. وفرَك عينيه وأصاخ السمع جيدًا، ولكنه اكتشف أن الصوت ليس صوت الشاويش، وتساءل سيد عمَّن يكون الهاتف وجاءه الجواب: «أنا عبد الرحيم يا سيد»، وتذكَّر سيد أن عبد الرحيم المسجون المتهم بغش الخبز، كان قد طلع إفراجًا منذ شهور، وهو صاحب مخبز في قرية على بُعد مرمَى حجر من سقارة، ويبدو أن قد عاد من جديد متهمًا بغش الخبز، فهو لا يكاد يخرج حتى يعود، وهبَّ كالملسوع، وقال لعبد الرحيم: إيه الأخبار يا عم عبد الرحيم؟ أمي إزيها؟ وقال عبد الرحيم: «أمك اتجوزت يا سيد وسابت البلد وما حدش عارف راحت فين.»

وخيَّم الصمت على التأديب من جديد، ثم هتف سيد بصوت كأنه صادر من المقابر «واتجوِّزت مين؟» وأجاب عبد الرحيم «الولد عنتر اللي كان ماشي مع عليوة الله يجحمه!»

ولا أحد يعلم ما الذي جرى لسيد طول الليل، ولكن الذين يجاورونه في زنازين التأديب، قالوا: إنه لم يَكفَّ عن البكاء. ولكنه لم يكن بكاء مألوفًا، ولكنه كان يصرخ ككلب داسته سيارة نقل على الطريق. وفي الصباح نادَى سيد على شاويش التأديب، وقال له في استعطاف شديد: يا عم أحمد … والنبي تقول لعم عبده الأبيض سيد عاوزك، قول له أنا خدَّامه، قول له خلاص، عبده هيفتَّح مخه، هيفتحه ع الآخِر.

الفصل الرابع

المسلكاتي

دخلتُ مستشفى السجن أول مرة، زَكمَت أنفي رائحة غريبة، ظننتُها في البداية رائحة مرَض أو دواء، ولكني اكتشفتُ بعد فترة أن رائحة منبعثة من طبيخ يغلي في إناء فوق النار، وقد وقف يراقبها مسجون يبدو أنه كان طباخًا من قبل أن يأتي إلى السجن! ثم اكتشفتُ وانا جالس مع الدكتور أراقب منظر المستشفى الذي انقلب إلى مطبخ، أن المرضى الذين يقيمون في المستشفى يَتمتَّعون بصحة جيدة، ويرتدون ملابس فاخرة، ولديهم كل فاكهة الموسم.

وأن لهم على الطبيب دالة، بل أكثر من ذلك لهم على الطبيب سُلطة! دخل أحدهم ونظر شذرًا إلى الطبيب وقال له في جفاء: إنت لسة قاعد؟

وابتسم الدكتور ميشيل في أدب مصطنع، وقال في صوت مرتعش: أنا خارج بعد لحظة، والحاجات المطلوبة ستحضر لكم بعد قليل، وعندما رأى علامات الدهشة على وجهي، قال وعيناه تفضحان كذبه: إنت مش عارفه مين؟

وعندما هززتُ رأسي بالنفي، أجاب: دا يبقى ابن عم البيه مدير مصلحة السجون، مسجون سنتين، والبيه المدير كل عدة دقائق يتصل بمأمور السجن يسأل عن أخباره، وكان الدكتور ميشيل كاذبًا في ادعائه. فهذا الرجل كان مدير فرع لأحد البنوك في القاهرة.

ثم خطر له في لحظة تَجلٍّ أن يُهرِّب مبلغًا من المال من أجل تثبيت المكاسب الشعبية، وتدعيم المسيرة الثورية، فقد كان على علاقة وطيدة بأحد الضباط الكبار في مكتب المشير! ولم يُقَدَّر للبيه مدير البنك أن ينام في الزنزانة يومًا واحدًا على الإطلاق. دخل من باب السجن إلى المستشفى مقابِل مرتَّب شهري قدره خمسون جنيهًا للدكتور ميشيل الذي أثبت على تَذكرته الطبية أنَّه مريض بالسكر، ويعاني من احتباس في البول، وضعف عام، واشتباه في دَرن رئوي. كان كل من في السجن يعلم أن السر معروف للجميع، ومع ذلك كان لا يكف عن ترديد قصة قرابة المسجون إياه للبيه مدير المصلحة!

ومن ذلك الحين بدأت أكتشف سر مستشفى السجن ... المستشفى يتكون من عنبرين، كل عنبر يحتوي على عشرين سريرًا، وليس فيها من مواصفات المستشفى إلا الاسم! فالأرضية متآكلة، والسراير منظرها يسد النفس، والأدوية تُسبِّب المرض ولا تشفيه، والممرضون كانوا في الأصل حراسًا، عجزوا عن أداء مهمة الحراسة فتحوَّلوا إلى «ملائكة» رحمة، والطبيب أعوذ بالله ... كتلة من الشحم واللحم. كل ما فيه مُنبعِج ومنتَفِخ. تزوَّج من فتاة تصغره بعشرين عامًا، وثرية ومن عائلة معروفة، ثم أصيب فجأة بضعف عام، جعله شديد النَّهَم لجمع المال ولحظة مد الطبيب يده، ظلت مبسوطة على الدوام. يرتشي ابتداء من السيجارة إلى المرتب الشهري من المسجونين السِّمان! ويطلب كل صباح كشف الزيارات ليلقي نظرة عليه، ليتسوَّل غداءه من المعلمين الكبار الذين أصابهم الدور في الزيارة، وكان يُؤثِر بعض الأطعمة فيطلبها بنفسه بالتليفون من أقارب المسجونين. وكانت طلباته تبدأ بالدجاج واللحوم وتنتهي بالفلفل الأسود!

ولما كانت المستشفى مكوَّنة من عنبرين، فقد خصص الطبيب عنبرًا للمرضى المشرفين على الهلاك، وخصَّص العنبر الآخَر للمسجونين السمان، من يدفع يَقضي كل المدة بالمستشفى. ومَن يتوقَّف مرة واحدة يُطرَد شر طردة! ورغم محاولاتي العديدة لدخول المستشفى إلا أنني لم أفلح. فقد كانت مسألة دخول المستشفى — كما الحال مع المسجونين السياسيين — لا بد أن تَحظَى بموافقة الجهات العليا! ولكني تمكَّنتُ من دخول المُستشفى قبل شهرين فقط من انتهاء مدة سجني، فقد طلبت في خطاب رسمي تحويلِي إلى مستشفى القصر العيني، فسمحوا لي بدخول مستشفى السجن.

وبالرغم من قذارة المستشفى وبؤسها، فقد شعرتُ بأنني خرجتُ من جوف الكهف إلى حيث النور والهواء! فعندما يُغلِق السجن أبوابه، وتهدأ الحركة تمامًا، تدب الحياة في المستشفى وتصبح مثل خلية نحل!

كان سريري يحتل الركن الأيمن عند الباب، وكنتُ قد أويت إلى الفِراش بعد الظهر وأغفيتُ فترة، واستيقظتُ على ضجة المستشفى، وخُيِّل إليَّ في البداية أن هناك تفتيشًا للمرضى، ولكني فوجئتُ ببعض المساجين يُوقدون نارًا ويطهون لحمًا، ويُهيِّئون السَّلاطة الخضراء ويغسلون فاكهة! والبعض الآخَر ينفخ النار في كمية من الفحم ويعدون «جوزة» وبعض المعسل! وتصوَّرتُ أنني في غُرزة حشيش ولستُ في مستشفى داخل أسوار سجن.

وفجأة وقع بصري على رجل طويل القامة، عريض المنكبين، له لحية تُضفي عليه وقارًا شديدًا، وترسم مع شيخوخته الجليلة صورة للرجل الطيب الذي أوقعه سوء حظه النحس في هذا المصير!

كان الرجل يجلس على السرير، يَعبث بحبات مسبحة ثمينة. وبدَا لي من احترامات الجميع المبذولة بلا حساب للرجل الكبير، أنه أعظم شخصية في المستشفى وأنه صاحب الأمر والنهي في هذا المكان، وعندما التقَتْ نظراتنا ألقى عليَّ تحية المساء. وقال بصوت خشن: (مراحب يا سعادة البيه، إنت نورت المستشفى). ثم أمر لي بالشاي، فجاء أحد المسجونين بكوب الشاي على عجَل. ثم دعاني للعشاء على مائدته احتفالًا بقدومي للمستشفى. وقبل أن يتهيَّأ العشاء، قام الرجل وصلَّى صلاة المغرب ثم العشاء، ثم جلس طويلًا بعد صلاته يبتهل إلى الله بصوت خفيض ويتلو أدعية كثيرة. وعندما جلسنا نشرب الشاي بعد عشاء دَسم فاخر يندر وجود مثله في مثل هذا المكان! جلس الرجل يُحدِّثني في ود شديد عن حياته خارج السجن.

فهو معلم كبير من تجار المخدرات في حي البطلية. اسمه أشهر من اسم وزير الداخلية، الحاج سعد المسلكاتي، وهو يتاجر في الأفيون، ولا يتاجر في الحشيش. وقد اقتنى ثروة طائلة من تجارة الأفيون، ولديه عدة عمارات فاخرة على شاطئ النيل، وأسطول من سيارات التاكسي، وأموال سائلة بلا حساب! ولديه عدة دكاكين لبيع الدخان والسجاير؛ ذرًّا للرماد في العيون! وهو يدفع مرتبات سخية لرجال الأمن المكلفين بمكافحة المخدرات. وبالرغم من ذلك فهم يقبضون عليه أحيانًا، ولكنهم يرتكبون أخطاء فاحشة في إجراءات القبض عليه. تجعل من السهل على أي محامٍ ضليع في القانون أن يَخرج من المحكمة وفي يده الحاج سعد المسلكاتي، ولذلك لم يدخل السجن قط، رغم أنه شيخ تجار الأفيون منذ عشرات السنين!

ولكن الضربة جاءته هذه المرة من حيث لم يحتسب! كان جالسًا بعيدًا عن البطلية في منزل تاجر مخدرات صديق في حي المطرية. وكان ساهرًا مع شلة من الأصدقاء يدخنون الحشيش ويَروُون النكات. عندما داهمتهم قوة من الشرطة وأمسكتْ بهم مُتلبِّسِين بتدخين الحشيش!

وعند تفتيشهم عثروا مع المعلم سعد المسلكاتي على قطعة حشيش تَزن نصف كيلو. قرَّر هو أنها للمزاج، وقالت النيابة إنها للإتجار. ولما كانت، الكمية بسيطة فقد اكتفت المحكمة بحبسه لمدة سنتين سيقضي منها ثمانية عشر شهرًا ثم يغادر السجن؛ لأنه كما تشهد بذلك كل التقارير، حَسَن السير والسلوك!

وسألني المعلم سعد وهو يشفط نفسًا عميقًا من المعسل المغموس بالحشيش: والبيه كان يشتغل إيه في الحكومة؟

– صحفي.

– آه ... جُرنالجي يعني.

وعندما أجبْتُه بالإيجاب، جذب عدة أنفاس عميقة متلاحقة، ثم قال في هدوء وفي ثقة: أقولك بصراحة ... كلهم حشاشين.

وعندما سألته عمَّن يقصد، أجاب بهدوء: الجرانالجية، مِش هُمَّه بس، وكمان بتوع النيابة، والبيه مأمور السجن، والضباط، كلهم حشاشين. الحكومة كلها بتحشش يافندي، ومش عارف بيمسكونا ليه؟

وراح المعلم المسلكاتي يروي قصصًا مثيرة عن ضباط كبار كانوا يقبضون مرتباتهم من المعلم أول كل شهر، وعن أشخاص مَسنودين كانوا يُسهِّلون عملية تهريب المخدرات لقاء الأجر، ثم قال يؤكد كلامه: طب بِتخش إزَّاي المخدرات؟ تعرف تقولِّي، عفاريت زرق بيدخلوها البلد؟ ثم ضحك ضحكة ناشفة متقطعة قبل أن يستطرد: ما عفريت إلا ابن آدم.

وفجأة حدثت ضجة عند الباب، ومفتاح ضخم يدور في القفل الأكثر ضخامة. ثم انفتح الباب على مصراعيه وفوجئت بالضابط النوبتجي النقيب الدسوقي يقف بلحمه وشحمه فوق رءوسنا، والفحم والع، والجوزة شغَّالة ورائحة الحشيش تعبق في جو المستشفى ... وأحسستُ بقلبي يغوص حتى قدمي، وجفَّ ريقي، وجفَّ دمي أيضًا، وفقدتُ القدرة على النطق، وظللتُ جالسًا مكاني أبحلِق مذهولًا في الضابط؛ لأنني فقدْتُ — أيضًا — القدرة على القيام.

خُيِّل إليَّ لحظة رأيتُ الضابط الدسوقي يدخل علينا أنه ربما كان الموقف كله كُمينًا أَعَدُّوه بإحكام، وها أنا ذا واقِع في الكمين ومُتلبِّس. وإذا كان موعد الإفراج عني في قضية سياسية سيحل بعد أسابيع، فإنني حتمًا سأواصل السجن ولكن في قضية مخدرات!

وبدَتْ علامات الارتباك على وجه الضابط الدسوقي، ووقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل، ومن خلفه حارس الليل وقد أمسك بمجموعة مفاتيح السجن في يده. وفجأة وجَّه الضابط حديثه إليَّ، وقال وهو مندهش: هو سعادتك هنا؟

سعادتي؟ ظريفة! هل يلعب الضابط بأعصابي؟ هل يسخر مني؟ ثم قال على الفور: أنا لما عرفت أن سعادتك هنا جيت أمسِّي عليك. وتدخَّل المعلم المسلكاتي الذي كان الارتباك يسيطر عليه: ما تبطل أمور الأونطة دي بقى، ما تعقد أمَّال، البيه مِنِّنا وعلينا وآخِر مزاج. وكأنما وجد الظابط الغريق طوق النجاة وتعلَّق به على الفور.

وأجاب وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه: كِده، طَيِّب مساء الخير. وانحنى وراءك بالجورة. وشفط نفَسًا طويلًا عميقًا، ثم أنفاسًا قصيرة متلاحقة، وقال وهو يخرج الدخان من أنفه في خيط، طويل متصل: يا سلام! دا عنبر ... ثم جلس في هدوء بينا انحنَى الشاويش العجوز على الجوزة يتناول نصيبه من الأنفاس. وراح الضابط يبدي ارتياحه الشديد لوجودي في المستشفى. فهنا الجو حرية أكثر، ومزاج أكثر، وهي على أية حال فترة لازمة استعدادًا للإفراج. وعندما عزَم المعلم المسلكاتي على الضابط أن يتعشَّى رفض بشدة. وعلَّل اعتذاره بأنه تناوَل العشاء في فرح أحد الأصدقاء قبل أن يحضر إلى السجن مباشرة. وعندما علَّق المعلم المسلكاتي: يا بختك يا عم. بتحضر أفراح.

راح الضابط يشرح الأسباب التي دعَتْه لحضور الفرح فهو مُقبل على الاحتفال بعقد قران كريمته الكبرى، ولذلك حضر الفرح ليتفق مع المطرب رشدي على إحياء الفرح. ولكن الاتفاق لم يعجبه، فقد أصر المطرب على أن يقبض أجرًا كبيرًا، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة كما ترون. يحسدون الضباط. هكذا قال الضابط وهم في الحقيقة شحاتون. المطرب أصر على أن يتقاضى ثلاثمائة جنيه في ليلة واحدة وهي مرتب ستة شهور للضابط. ستة شهور من التَّعب والعَرَق والسَّهر والمسئولية. وآه من مسئولية الضباط. أقل هفوة قد تطيح بهم، أصغر خطأ قد يودي به، ربما حادث يقع بالقضاء والقدر يلقى به من شاهق!

وراح الضابط يحكي لنا عن حادث وقع قضاء وقدرًا عندما كان يعمل معاون نقطة في الصعيد. فقد أمسك بِلص، وأثناء استجوابه أنكر اللص وأبدى عنادًا شديدًا وإصرارًا على الإنكار رغم جميع الوسائل التي اتبعها معه. وفي موجة من موجات الضرب التي كان يكيلها له، وقعت العصا على مقتل من جسده، فسقط ميتًا بلا حراك قضاء الله وقدره! فلم يكن الضابط الدسوقي يقصد قتله، ولكن عمره انتهى ... ولكل أجَل كتاب! ولكن النيابة لا تحترم القضاء والقدر ودخل الضابط الدسوقي في دوامة سين وجيم، وأوقف عن العمل فترة، ثم أطاحوا به إلى الوادي الجديد، وعندما أظهر الله براءته، وأمام محكمة الجنايات، نقلوه إلى مصلحة السجون، حيث التَّعب أشد والمسئولية أكثر.

وتمتم المعلم المسلكاتي بكلمات قليلة: بس السجون خيرها كثير وربك عالم بحالك يابو خليل. وقال الضابط في صوت حزين: والله خيرها ما هو على قد بلوتها، ورد المعلم المسلكاتي: احمد ربنا، دا ياما ضباط حاسدينك يا إبراهيم!

– على إيه يا حسرة؟ تكونش فاهم الناس كلها زيك يا معلم. طب سجن زي ده، تعرف تقولي فيه مين؟

وقال المسلكاتي وهو يحكم ربط العمامة فوق رأسه: أهو فيه برضه. خير ربنا كتير. المعلم على عيسى، والمعلم أمل، والمعلم ... وقاطعه إبراهيم الدسوقي، كأنما أدرك أن المعلم المسلكاتي يعرف كل شيء عمَّا يدور خلف أسوار سجن القناطر. وقال الضابط وهو يحاول انتزاع عطف الحاضرين: طب بذمتك حد يعمل اللي أنا باعمله يا معلم؟ وأعطاه المعلم شهادة تفوق على الفور: إنت جدع يابو خليل.

وعند هذا الحد توقَّف النقاش بين الجميع. وضرب الضابط يده في جيبه فأخرج قطعة حشيش حجم فردة حذاء مقاس كبير ... وقال للمعلم وهو يطرحها بين يديه: تموين الأسبوع يا معلم والجماعة بيسلموا عليك. وقال المعلم المسلكاتي بعد أن شال الحشيش: جماعة قلالات الأصل، هيه دي اللي قدروا عليها؟

وقال الضابط: على فكرة، همه جايينلك زيارة بكرة. وساد الصمت بيننا من جديد. وانهمك الجميع في شفط أنفاس الجوزة، وفي تذوق الصنف الجديد وارد الليلة. وعندما أبديت استحساناً بجودة الصنف الجديد. قال المعلم المسلكاتي: دي حاجة جديدة اسمها أم سفينة، نزلت قريب بس دهب، أحسن من أم أكرم، وخدني لحنانك، حاجة حلوة من غير مؤاخذة تشعل الدماغ من جوه النافوخ!

كان الليل قد انتصف تقريبًا، وصوت الحراس يتصاعد ويتصاعد ويشتد صاخبًا في الظلام.

وبعض المساجين يتشاجرون في العنابر البعيدة وقد خفت الأضواء في المستشفى، ونام بعض النزلاء، واستيقظ البعض الآخر. ونباح كلاب يأتي إلى مسامعنا من المزارع القريبة، ونقيق ضفادع يختلط بصوت المياه المتدفِّقة في الرَّيَّاح المنوفي، وعسكري يتشعلق السور أراد أن يُثبت نشاطه للضابط الذي دخل السجن يزعق بالصوت الحيَّاني واحد تمام. ثم يخف الصوت تدريجيًّا كلما انتقل العدد إلى اثنين وثلاثة وأربعة، فإذا وصل إلى رقم 14، خُيِّل إليَّ أنه أضغاث أحلام قديمة!

ورفت على شفتي ابتسامة غريبة، ما الذي جمعنا هنا وفي لحظة الزمان بالذات؟ وأي صحبة جميلة؟ سياسي مسجون، وتاجر مخدرات، وبعض اللصوص والبلطجية، وضابط نقيب، وحارس عجوز، والكل يشفط أنفاسًا معطرة وينفثون دخانًا أزرق. الشعب والسلطة في ألذِّ تحالف! المعارضة والحكومة في أحلى قعدة!

تحالُف قوى الشعب العامل في جلسة عمل وردية، بينما الحراس يصرخون فوق الأسوار! تُرى لماذا يصرخون؟ لتخويف المسجونين؟ أم لطرد الخوف من أنفسهم؟ ومع

ذلك فكل شيء تمام! واحد تمام واثنين تمام! وثلاثة تمام! لا مخالفة ولا خروج على النظام. والمعلم المسلكاتي يبدو وجهه هادئًا كوجوه السلف الصالح. بينما يبدو الإجهاد الشديد على وجه الضابط الذي بدأ حياته كونستابلًا ممتازًا، وظل يترقَّى حتى يصبح نقيبًا في الثانية والخمسين! وعندما دقَّقتُ النظر في وجهه اكتشفتُ أنه شرد بعيدًا من يدري ربما يفكر في الديون والهموم. ربما يتمنَّى في أعماقه لو تبادَل مع المعلم المسلكاتي مركزيهما في الحياة! فما أحلى أن يكون الإنسان مسجونًا له كل هذا الهيلمان، وما أتعس أن يكون ضابطًا يعاني من كل هذا الشقاء.

وكأنما لاحظ المعلم المسلكاتي شرود الضابط فلكزه بلطف وصاح في حنان: هيه. رحت فين يا سعادة البيه؟

وأفاق الضابط من شروده، فأجاب وعلى شفتيه ابتسامة باردة: أبدًا، أنا معاك هنا. وتمتم المعلم المسلكاتي: صلِّ على سيدنا النبي.

وهتف الجميع بالصلاة على سيدنا النبي، وقال الضابط: كان نفسي تكون بره عشان تحضر معانَا فرح البنت!

كانت صفارة حارس الفناء تُدوِّي في جوف الليل، وكان الحارس العجوز هو أول من انتبه إليها فصاح ينبه حضرة الضابط: دي إشارة خطر يا بيه! وقال الضابط مستهزئًا: حيكون خطر إيه يعني، اليهود هجموا، أسأل الحمار ده في إيه؟ وفتح الحارس العجوز النافذة، ونادى على حارس الفناء وبعد أن لعن سنسفيل أبوه، سأله عن سبب الصفارة، وأجاب العسكري المذعور في الفناء: مسجون مات يافندي!

وقال الحارس العجوز: يعني دكتور والا الطبيب الشرعي، إنت شفته ميت؟

– أحد المساجين بلغني.

– وفين زنزانة المرحوم إن شاء الله؟

– في دور أربعة، عنبر «ب».

عندما سمع الضابط موقع المسجون الذي ربما مات، وربما يتماوت هدأ روعه وقال حازمًا: إياك يموتوا كلهم عشان نرتاح من قرفهم.

كان دور أربعة هو مجمع حثالة المساجين صغار اللصوص والنشالين، والمتسولين، والذين لا أهل لهم ولا مورد! وموت واحد منهم أو أكثر لن يثير ثائرة حشرة في ديوان مصلحة السجون. ولذلك انشغل الضابط مرة أخرى بتقليب الفحم على النار، بينما الحارس العجوز مُشتَبك في نقاش حادٍّ مع حارس الفناء، وصياح المساجين في العنابر يتصاعد للسماء.

وفجأة، وقف المعلم المسلكاتي وتناول كوبًا من الماء كان إلى جواره، وصبه على الفحم المشتعل، فخمدت النار على الفور وأحدث خمودها صوتًا سرعان ما خفَتَ وتلاشى بالتدريج. ونظر الضابط إلى المعلم المسلكاتي علَّه يجد على ملامحه تفسيرًا لهذا التصرف.

كان وجه المعلم جامدًا، وجبينه مقطبًا. وقال وهو ينهض من السرير: كفاية كده الليلادي، شوف الواد اللي بيموت دا حكايته إيه؟

رد الدسوقي وقد بدأ مسطولًا على الآخر: دا عيل صايع ما يموت في داهية.

وقال المعلم وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة فاترة: دي روح مهما كان، وحرام عليك. ونهض الدسوقي في تثاقل، وقال وهو يُحكِم رَبْط الحزام حول وسطه، ويعدل من وضع الكاب فوق رأسه: أنا بس كنت عاوز أتفاهم معاك على حكاية الفرح بتاع البنت، أصل الحالة نار زي ما انت عارف، والواحد ما بقاش فيه حيل.

وقال المعلم وهو يربت على ظهر الضابط: إن شاء الله هتفرج، وكل شيء هيبقى عال، وانا حكون بره يوم فرح البنت، وهنعمل واجب ... وأرعش الدسوقي حاجبيه. وقال في أدت مزيف: يسمع من بقك ربنا. وقال المعلم: إنت عليك تجيب الورق م المصلحة، أقوم أخرج بعد أسبوعين، ونحضر الفرح. ونفرح كلنا مع بعض.

– بس ... إنت عارف ...

– مفيش بس ولا حاجة إنت قدها وقدود ... روح شوف الواد اللي بيموت ده. وتوكل على الله، وشوف حالك، دول خمسميت جنيه يا بيه، كل جنيه ينطح أخوه شوف أكل عيشك يا بو خليل، إنت راجل كبير ودي حاجة هايفة.

عض إبراهيم شفته السفلى بغيظ وتلمَّظ كأنه قطة جائعة، وضرب بيده على فخذه. وقال وهو ينظر للمعلم بغيظ مكبوت: على كل حال اللي فيه الخير يقدمه ربنا.

كان صياح المساجين يتصاعد للجو عندما خرج الدسوقي، وزعق عسكري الفناء انتباه، إشارة إلى أن الضابط قد حضر.

واشتدت الضجة في العنابر وفي الفناء، واتجه المعلم المسلكاتي إلى النافذة فأغلقها، وغاب الضجيج خلفها، وعاد المستشفى تغرق في هدوء لزج متوتر. وكان خدم المعلم المسلكاتي قد انهمكوا في إخفاء كل شيء وتنظيف المكان بعناية.

وعندما تمَدَّد على السرير استعدادًا للنوم، ألقى نظرة خاطفة نحوي، فوجدني ما زلت جالسًا في مكاني، ساهمًا مسطولًا، وقال المعلم وهو يشد الحزام على جسمه: أونطجي أبو خليل ده ... عاوز ياخد من غير ما يِدِّي، مش كفاية مُرتَّب شهري قد مرتبه من

الحكومة، وبعدين قلتُ له على خدمة بسيطة، عاوز يعمل حِدق، لكن على مين. وحياتك إن ما راح المصلحة واتفق مع الباشكاتب على تعديل التواريخ ما هو شايف حاجة ... أصلي أنا يا فندي بدَل ما أقعد هنا ثلاثة أشهر، أقعد أسبوعين، وبدل شهر ١١ يقلبها شهر ٨، فيها إيه دي؟

وعندما بدت الدهشة على وجهي، قال وهو يضحك: يوه، دي بتتعمل كثير قوي، إنت فاهم حد م المساجين السمان بيطلع في ميعاده الحقيقي؟ اللي يدفع بيطلع، مصلحة طبيخ يا بيه. بكرة أحكيلك على كل حاجة.

وسرعان ما غط في نوم عميق!

خلال أيام قليلة كانت العلاقة قد توطَّدت بيني وبين المعلم المسلكاتي، كان ودودًا وسعيدًا على نحو ما، ولم يكن يشعر بالوحدة في سجنه، أحاط نفسه بعدد من الأصدقاء، سكنوا جميعًا في المستشفى، وعدد آخر من الخدم، وكان طعام الجميع وشرابهم ومزاجهم على حساب المعلم ومن جيبه الخاص، وكان يدفع لهم ثمن الإقامة في المستشفى. وهي بالطبع بالمجان، ولكن هناك تسعيرة وضعها الدكتور ميشيل أجرًا عن المبيت في المستشفى وهي مائة جنيه شهريًّا لتاجر المخدرات، ومائة جنيه للمختلس، وخمسون جنيها للمتهم في جناية رشوة، وخمسة وعشرون جنيهًا للمتهم في جريمة قتل. أما السياسيون فكانت التسعيرة تخضع للظروف والتساهيل! وكان للخدم حساب خاص، فقد كان الدكتور ميشيل لا يساوم بشأنهم كثيرًا؛ لأنه كان يستخدمهم في تنظيف المستشفى وفي جمع الإتاوات من المرضى المترددين على المستشفى كل صباح.

ولم يكن هؤلاء الخدم خدمًا بالمعنى المعروف للكلمة، ولكن كان من بينهم الموظف والعامل وتاجر المخدرات الفقير. ولم يكن في استطاعة هؤلاء أن يواجهوا نفقَات السجن الباهظة؛ ولذلك تحوَّلوا إلى خدم داخل السجن، وكان حظ المعلم المسلكاتي من السماء، فقد عثر على طباخ درجة أولى كان فيما مضى من الزمان، يعمل طباخًا بفندق درجة أولى في الإسكندرية، وخلال خناقة حامية بينه وبين أحد الشبان لخلاف حول فتاة، صفع الطباخ غريمه الشاب صفعة قوية قلعَت عينه وأطفأت فيها النور. وجاء إلى السجن لقضاء عقوبة مدتها ثلاث سنوات.

ويبدو أن ظروفه المادية لم تكن على ما يرام، فقضى في السجن عامًا يعاني، إلى أن التحق بخدمة المعلم المسلكاتي. وبقدر ما كان الطباخ المدرَّب نعمة على المعلم، كان — أيضًا — نقمة عليه، فالمعلم رجل مشهور، وحبايبه في السجن أكثر من الهم في القلب. وقد ذاع صيت الطباخ لإتقانه أصنافًا معيَّنة. وكان على المعلم أن يلبي كل طلبات أصدقائه

في السجن، وكان عليه — أيضًا — أن يلبي طلبات بعض الضباط الذين يقضون الليل داخل الأسوار.

وكان في السجن ضابطان مسئولان مسئولية مباشرة عن العنابر، وكانَا في سن مُتقارِبة، ولهما نفس البداية ونفس السلوك. الضابط الدسوقي والضابط أبو بكر. وكانَا يتناوبان السهر في السجن ويُكلَّفان بأعمال تستغرق كل وقتهما حتى وهم خارج الأسوار، فكثيرًا ما كان البيه المدير يكلِّف أحدهما بالعثور له على قطعة غيار نادرة لسيارته الفيات الصغيرة، أو البحث له عن عمال بياض للعمل في عمارته الجديدة التي يشيدها في ضاحية مصر الجديدة، وكان المدير والمأمور ونائب المأمور يعاملوهما معاملة سيئة. والسبب أنهما لم يكونا في الأصل من فئة الضباط. ولكنهما كانَا مجرَّد كونستابلات ارْتَقَيا في سلك الوظيفة حتى بلغَا مرتبة الضباط، ولكن سلوكها وهيئتيها ظلَّت أقرب إلى العساكر منها إلى الضباط، رغم النجوم التي تُزيِّن أكتافهما، وصرخة الحارس بكلمة انتباه التي تسبق دخولهما إلى العنابر.

وكان الدسوقي أطيب من أبو بكر وأكثر شعبية لدى المساجين كان يكفي تدخُّل أحد المساجين الأثرياء لدى الضابط الدسوقي لكي يعفو عن مسجون فقير ارتكب ذنبًا داخل العنبر! على عكس الضابط أبو بكر الذي كان شغوفًا بتعذيب الآخرين، وأحيانًا عندما لا يجد شخصًا يعذبه، كان يلجأ لتعذيب العنبر كله، بإغلاق الزنازين في الثالثة بعد الظهر، مع أن اللائحة تنص على إغلاق الأبواب في التاسعة مساء صيفًا، وفي السابعة شتاء.

وعندما كان أحد يسأله عن سر إغلاق الأبواب في هذا الوقت المبكر، كان يرد بلا مبالاة: أحسن من خوتة الدماغ!

ولكنَّ الضابطين معًا كانَا يشتركان في إرهاق المعلم المسلكاتي، بما يطلبانه من أصناف الطعام والشراب والدخان، وكثيرًا ما كانَا يطلبان سُلفة عاجلة، عدا الراتب الشهري، وكان المعلم المسلكاتي يبدي كرمًا ونخوة تجاه مثل هذه الطلبات.

وكان لكل ضابط منهما سجين مدرَّب يساعده في أعماله داخل السجن ويطلق عليه اسم النوبتجي، ولكن هذا النوبتجي كان يتفرَّغ عادة للأعمال غير المشروعة التي يقوم بها الضابط. وكان نوبتجي الضابط الدسوقي اسمه روبير، وهو يهودي مصري مُصاب بعاهة مستديمة في ساقه من إثر رصاصة أطلقها عليه أحد رجال الشرطة عقب عملية سطو جريئة قام بها على أحد البنوك، واستطاع روبير الحاذق الخبير. الملم تمامًا بخفايا السجن وأحواله، الذي يحفظ عن ظهر قلب لائحة السجون المصرية، والذي فرض من

نفسه مركز قوة على الإدارة، وعلى الضابط الدسوقي على نحو خاص، استطاع روبير أن يجعل من نفسه نِدًّا للضابط! ومتساويًا معه في الحقوق، وشريكًا له، وعلى قدم المساواة في الأرباح ... وكان الضابط إذا طلب سُلفة خمسة جنيهات من المعلم، طلب روبير نفس المبلغ لنفسه أيضًا. وعندما شكا لي المعلم من تصرفات روبير الجنونية، وطلباته التي لا تتوقف عند حد. قلتُ له: طيب وانت بتديله ليه؟

وهز المعلم المسلكاتي رأسه في دهشة من سؤالي، وقال وهو ينتقل من مكانه ويقترب مني أكثر: حاكم دا واد شر، وبعدين يعرف حاجات كتير ولو فتح بقه، هيوقف المراكب السايرة.

وأخذني الحماس فرُحت أشرح له كيف أن خوفه ليس في محله. فلو فرض وتكلم روبير، فإن كل ماس يخسره المعلم هو مغادَرة المستشفى، والرجوع للزنزانة، وعلى فرض أن هذا حدث، فليس أمام المعلم إلا عدة أشهر قليلة، يستطيع أن يتحمَّلها دون أن يضطر للخضوع لروبير. وأشعل المعلم المسلكاتي سيجارة، وكانت هذه عادته كلما استمع إلى كلام لا يعجبه، وقال وهو يشفط نفسًا عميقًا: أول هام ما دام طلباته مَقدور عليها يبقى في ستين داهية. وعلى رأي المثل، اللي بيجي في الريش بقشيش، تانِ هام مين قالك إن أنا هقعد الكام شهر دول؟ إن شاء الله إفراج قبل منك، ولما تطلع أَمانة عليك تزورني في البطلية. لازم نقعد مع بعض سوا قعدة حلوة. ولما أبديتُ دهشتي لوثوقه بأن يوم إفراجه قبل يومي، مع أن التواريخ تؤكد عكس ذلك، قال وهو يضحك ضحكته المعهودة: حاكم انتو بقى يا بتوع السياسة، عليكو تشديد شوية، لكن الجماعة الغلابة اللي زينا مقدور عليهم يا سيدي، وانا مكتوب في الدوسيه بتاعي أن سجني ابتدأ شهر ١١ ولما ١١ تنقلب ٨ أخرج قبل ميعادي بثلاث شهور.

– طيب ولما يعرفوا المسألة؟

– ولا حاجة، أرجع أقضي الثلاث شهور تاني.

– طيب وليه خوتة الدماغ دي، ما تقضيهم وخلاص؟

– مش لو عرفوا ... لكن همه حيعرفوا منين؟ بعد الإفراج بيحرقوا الورق، لو دوَّروا عليه تحت طقاطيق الأرض مش حيلاقوه.

وصمَت لحظات قليلة، ثم قال وقد لمعت عيناه ببريق غريب: ثم أنا لازم أكون بره يافندي في الفترة اللي جاية ... أنا لو خرجت حاكسب مليون جنيه. ولازم أكون بره.

وراح المعلم المسلكاتي يشرح لي كيف أن هذه العملية روتينية بحتة، لا تكلِّف الباشكاتب إلا تزويرًا بسيطًا في الأوراق، ثم إن الأوراق نفسها ستختفي تمامًا ولن يكون لها أثر بعد ذلك.

وحكي لي كيف خرج المعلم خضير، والمعلم قرقر، صحيح أنهم دفعوا مبالغ باهظة، ولكنهم أيضًا اختصروا من سجنهم سنوات طويلة، وقال لي: إن أحدهم دفع مرة عشرين ألفًا من الجنيهات مقابل اختصار ثلاث سنوات.

وكان محكومًا عليه بالمؤبَّد، ويستحق الإفراج عنه بنصف المدة. وكان قد دخل السجن عام ١٩٥٥م، فجرى القلم على الأرقام فقلبها إلى ١٩٥٢م، عملية بسيطة لم تستغرق سوى لحظات. ولكنها حققت للمعلم إياه أن يخرج من السجن عام ١٩٦٧م بدلًا من عام ١٩٧٠م.

وضربني المعلم المسلكاتي على كتفي ضربة خفيفة، وقال وهو ينهض من مكانه بجانبي، متجهًا إلى مكانه المعتاد: الكلام دا بيني وبينك، أنا بقولهولك عشان بس تعرف الدنيا ماشيه إزاي.

كان أحوال الضابط الدسوقي قد ساءت كثيرًا عقب تلك الليلة الحافلة.

فقد مات الولد المسجون الفقير، وأثبت الطبيب الشرعي الذي انتدب من خارج السجن أن الإهمال في إسعافه ... ساعد على حدوث الوفاة، فقد نزف الولد طويلًا حتى مات. وشهد بعض المسجونين في العنبر أن الضابط كان متواجدًا في المستشفى عندما استنجدوا به. ولكن لم يحضر إلى العنبر إلا بعد ساعات.

صحيح أن طبيب المستشفى شهد في صفه، وكذلك المُمرِّض الذي كان في نوبة الليل. كما شهد أيضًا عدد من المساجين في العنبر في صف الضابط وعلى رأسهم روبير. إلا أن الضابط الدسوقي بدأ مهتزًّا للغاية وقَلقًا على غير العادة ... وقال لي وهو يحكي تفاصيل التحقيق الذي جرى معه: أهو كان كل شيء قدامك، لكن على رأي المثل: خير تعمل شر، ولم أعلق أنا على كلامه بشيء!

وكأنما تحطَّم شيء ما في داخل الضابط، فقد بدَا شاردًا وساهمًا بشكل واضح ... وصارت قبضته على المساجين الغلابة أقل إحكامًا. ولما أبديت مخاوفي للمعلم المسلكاتي، من أن الضابط ربما لم يَعُد متحمِّسًا لموضوع تزوير الأوراق، ضحك المعلم، وقال: إيه علاقة ده بده؟ دا شغل ودا شغل يافندي، وضحك ضحكته الطويلة المتقطعة، وقال وهو يغمز بعينه: امبارح استلم الفلوس.

وذات صباح غادرتُ السجن في طريقي إلى المحكمة، للفصل في قضية مرفوعة ضدي من بعض الضباط اللصوص الذين كانوا يسيطرون على شركة من شركات القطاع العام.

وعندما عدتُ إلى السجن بعد الظهر، كان يسبقني نبأ هزَّ السجن هزًّا، فقد أوقف الضابط الدسوقي عن العمل تمهيدًا لنقله.

وعندما نظرت للمعلم المسلكاتي لأرى وقْع النبأ على وجهه، لم أستطع أن أتبيَّن شيئًا. كان هادئًا ساكنًا كالعهد به. وعندما أبديت له ما كان يعتمل في نفس تجاه موضوع نقل الضابط الدسوقي وعلاقته بموضوع الإفراج عنه. قال بنفس النغمة الهادئة الواثقة: أبدًا، ولا حاجة، كل حاجة ماشية تمامًا.

واعتقدتُ أن كبرياء المعلم المسلكاتي يفرض عليه هذا الهدوء، وأنه ربما يغلي في داخله، ولكنه يتجلَّد حتى لا يشمت فيه الأعداء، وتأكد ظنِّي هذا، عندما جاء إليَّ ذات صباح، وبعد أن شرب الشاي، قال لي في صوت خفيض للغاية: الحكاية بتاع الأفراح دي مسألة بيني وبينك، ولما أكدت له أن السر في الحفظ والصون، قال وهو يستعد للانصراف: حاكم انت عارف الجماعة المساجين كلامهم كتير.

في هذه اللحظة تأكَّد لي أن المعلم قد أيقن من خديعته. وأن هذه الكلمات هي نصوص اتفاقية التسليم بدون قيد ولا شرط لهزيمته، وبالفعل انزى المعلم المسلكاتي بعد ذلك ولم يَعُد يغادر سريره إلا نادرًا، وانقطعت جلسات الحشيش وهجر المستشفى مجموعة من الأصدقاء الذين كانوا معه، ولم يبقَ من مجموعة الخدم إلا الطباخ وآخر كان يتولَّى ترتيب سرير المعلم، وتنظيف دورة المياه، قبل أن يتوجه إليها المعلم في الصباح الباكر، ولكنه لم يفارقه هدوءُه، ولم تغادر الابتسامة شفتيه!

وراحت الأيام تزحف، والموعد يقترب ولكن لا حس ولا خبر. وذات يوم فوجئتُ بالضباط الدسوقي في المستشفى، كان قد صدر قرار بنقله إلى سجن المرج، وجاء لتسليم عهدته في سجن القناطر، ثم انتهزها فرصة لتوديع أصدقائه من المسجونين، وجلس يشيد بسجن المرج، وكيف أن الله أكرمه بنقله إلى هناك.

وبعد أن شرب الشاي معنا صافحَنا جميعًا، ثم انصرف.

عندما ودَّعت المعلم المسلكاتي في صباح اليوم التالي وأنا في طريقي إلى المحكمة، شدَّ على يدي بقوة، وقال لي في إلحاح شديد: وحياة سيدنا النبي ما تنسانَا بعد الإفراج. دا عيش وملح يا افندي، مش لعبة، ولازم تزورنا ونزورك.

ووعدتُ المعلم المسلكاتي بزيارته في السجن بعد أن يفرج عني، وكان قد بقي لي أسبوعان خلف الأسوار ... وضحك المعلم المسلكاتي ضحكته الودودة، وقال وهو ممسك بيدي: طب اقرأ الفاتحة إنك تبقى تزورنا.

وقرأت الفاتحة معه، وودَّعته وانصرفتُ.

كان يومًا مرهقًا طويلًا هدَّ من كياني، وما أن وصلتُ إلى السجن حتى صعدتُ بسرعة إلى المستشفى، واستلقيتُ على الفراش ولم يكن بالمستشفى أحد على الإطلاق، إلا مسجون عجوز نائم أو هكذا خُيِّل إليَّ، والصمت يُطبِق على العنبر، وحتى المرضون غادروا أماكنهم المعتادة وانصرفوا إلى حيث لا يعلم أحد، وعندما ناديتُ على أحدهم لكي يسعفني بكوب ماء، رد علي المسجون العجوز الذي حسبته نائمًا، وقال بصوت مسلوخ: مش هتلاقي أي حد هنا، أصل عقبال عندك المعلم المسلكاتي طلع إفراج.

وضاع صوته في الضجيج الذي انبعث من الفِناء فقد راحت الصفارات تُدوِّي إيذانًا بالتمام. كانت الساعة الخامسة لم تزل، ولكن هكذا تقضي قواعد الضبط والربط في السجون. وصوت الجاويش مرسي الشَّرس يتصاعد في الجو، يلعن أبو المساجين الحقراء الذين يَتحدَّون كل القوانين، حتى في السجون لا يريدون الخضوع للنظام.

الفصل الخامس

عبد الستار السياسي

سمعت عنه قبل أن أراه. كانت زنزانته تُواجه زنزانتي، وكانت مُغلقة طول النهار، بينما نزيلها يتمشَّى كالحيوان المحبوس في فِناء السجن، جيئة وذهابًا في خطوات منتظمة، ويده خلف ظهره، بينما كانت ملابسه الرَّثَّة تُظهر من لحم ظهره أكثر مما تُخفي، وحذاؤه البالي المثقوب، يجعله يسرع الخطى متأففًا عندما تكون الشمس في كبد السماء. وكان ضخم الجثة، مهوش شعر الرأس، حادَّ الطبع، وكانت تهمته سياسية ومدة سجنه ثلاث سنوات. وعندما وقع بصري عليه أول مرة كان قد مضى عليه في السجن عامان، وكان يتمتع بسمعة سيئة لدى جميع النزلاء! ولكثرة ما سمعته عنه من أفواه النزلاء تمنيتُ أن ألتقي به وأتحدَّث اليه. فقد خُيِّل إليَّ أنه ربما لم يستطع أن يحفظ توازنه بين ما في رأسه من مثاليات، وما في السجن من واقع. وربما تعرَّض لصدمة في بداية سجنه، أفقدَتْه القدرة على التعامل مع الجو المحيط به، وربما امتلأ قلبه حقدًا على كل مَن حوله من خلق الله وربما احترف تعذيب الآخَرين، احتجاجًا على التعذيب الذي لقيه. وهو على أية حال شخصية يستحق الدراسة ... وتستحق الرثاء.

ورغم محاولاتي العديدة للتعرُّف إليه، إلا أن الفشل كان من نصيبي دائمًا. فكلما التقينا وجهًا لوجه في الفِناء كان يفتح فمه عن ضحكة عصبية لا تحمل أي معنى، ثم يُسرع الخُطى مطأطئ الرأس، وبصره على الأرض، كأنما هو ديك رومي هربان يبحث عن شيء يلتقطه، وعندما أعيتني الحِيَل صرفتُ النظر تمامًا عنه. فقد اقتنعتُ بأنه لا بد أن يكون مجنونًا، أو على الأقل مسه خبَل في عقله. فقد كان أحيانًا يصرخ لأتفه سبب، وأحيانًا لغير ما سبب.

وكان إذا صرخ سبَّ المساجين والحراس والإدارة، فإذا وقع بصره على الضابط، اكتفى بسب المساجين فقط، واليوم الأغبر الذي قذف به إلى هذا المكان!

وبعد أسابيع طويلة من وصولي إلى سجن القناطر لغط السجن كله بأن عبد الستار السياسي مريض بمرض خطير، وأنه طلَب نقْلَه إلى مستشفى قصر العيني، ولمَّا لم تستجب الإدارة إلى طلبه، هدد بالإضراب عن الطعام، ولكن تهديده لم يرَ النور على الإطلاق!

وذات مساء وكان الليل قد انتصف، سَمعتُ نحيبًا مكتومًا يتردَّد صداه عَبْر جدران السجن الغليظة الصمَّاء. ولما أصختُ السمع جيدًا اكتشفتُ أن الصوت صادِر من زنزانة عبد الستار. وشعرتُ بالحزن عليه، فإذا كان السجن الانفرادي سيِّئًا، فليس أسوأ من الشعور بالوحدة في سجن يموج بالسجناء. فطوال الفترة التي مرض فيها لم يدخل زنزانته أحد إلا الحارس الغليظ الذي كان يُكِنُّ كراهية خاصة لعبد الستار، مبعثها أنه لا يملك فائضًا من السجاير. كما أن منظره لا يوحي بأنه مسجون سياسي، ولا بد أن هناك خطأ ما. وكانت تجربة الشاويش الحلواني الطويلة في السجون تؤكد أن المساجين السياسيين كلهم من طبقة الأثرياء. وزراء سابقون، ورجال أحزاب من أصحاب الطين، وضباط ومحامون وصحافيون وأطباء وأحيانًا طلبة، ولكنهم جميعًا يعيشون في السجون في بحبوحة من العيش، ويُغدِقون بسخاء على الحراس والمساجين. نعم كله إلا هذا العبد الستار.

فلم يكن معه ما يعطيه لأحد، بل إنه اقترض من كثيرين دون أن يرد ما عليه من ديون. وكان الشاويش الحلواني كلما ذكر أحد اسم عبد الستار أمامه، قال وهو يقسم بأغلظ الإيمان: طب تصدقوا بإيه، وحياة سيدنا النبي دا ما هو سياسي ولا حاجة، دا أكيد مخبر في المباحث ومزقوق على حد هنا. حاكم الحكومة ساعات تعمل حاجات زي كده.

ولقد انتشرَت هذ الإشاعة التي أطلقها الحلواني، حتى أصبحت شبه حقيقة يتداولها الجميع حتى الضابط الدسوقي كان يعتقد أنها حقيقة، ولذلك يحتقره ويحذر منه ويخشاه في الوقت نفسه، ورغم عدم قيام أي دليل على صحة هذا الكلام إلا أنه زاد في نفور الناس من عبد الستار، حتى صار يعامَل في السجن معاملة حشرة مؤذية يتجنبها الجميع!

وعندما فتحتُ عليه باب زنزانته في ذلك الصباح، كان ممددًا على الأرض فوق بطانية قذرة ممزَّقة صار لونها مثل لون الأرض، ولم يكن في الحجرة شيء على الإطلاق، بدت عارية تمامًا إلا من جردل البول، وجردل مياه الشرب. ولم يكن ثمة فرق بين الجردلين وعندما شعر عبد الستار بحركة فتح الباب، تماوَت وزفر زفرة أنين خافتة، فقد ظن أنه الحارس جاء لأمر ما. فلمَّا ألقيتُ عليه تحية الصباح. هبَّ مفزوعًا كمن لدغته عقرب، ورد على أسئلتي بإجابات مقتضَبة.

ورغم لقائه البارد، فقد جلستُ في مواجهته على أرض الزنزانة، ومددت له يدي بكوب شاي كنتُ قد أعددتُه له، ولكنه رفض بشدة. ولما لمس مني إصرارًا شديدًا، فقد قَبِلَه على مَضض، وراح يرتشف الشاي بصوت مسموع، ثم قبل مني سيجارة شاكرًا. أشعلها وأخذ منها أنفاسًا عميقة متلاحقة، وعندما أبديتُ له دهشتي من العزلة التي فرضها على نفسه أجابني في حسم: دول أصلهم ناس وسخة ... ثم واصل حديثه، وكان قد انتهى من احتساء آخِر رشفة في كوب الشاي: أنا بيني وبينك مندهش، إنت بتتكلم مع الناس دول إزاي، ناس حراميه ومجرمين!

ولم يتصل النقاش بيننا بعد ذلك، قطعه عندما أبدى رغبته في النوم، فتركتُه على أمل لقاء آخر. وتعمدتُ أن أترك علبة السجائر مكانها على الأرض. فقد قدَّرتُ أنه في حاجة شديدة إليها. وتعدَّدت اللقاءات بيني وبين عبد الستار بعد ذلك، وكنتُ اكتشفتُ في كل مرة شيئًا جديدًا فيه! ولكنه لم يفتح قلبه قط. وإن كانت ثورته الشديدة على المساجين لم تهدأ قط. وذات صباح طرق عليَّ الباب، وبدون أي مقدِّمات، طلب علبتَي سجاير لأمر هام. وسحبْتُ علبتين وأعطيتهما له.

فأمسك بها ووقف ينظر نحوي نظرات لم أفهم معناها في البداية، وعندما استفسرتُ منه عمَّا إذا كان نوع السجاير لا يعجبه، لم يُجِب، عضَّ على شفتيه السفلى بقسوة، وبكى فجأة، ثم توقَّف عن البكاء فجأه، ثم مدَّ يده وصافحني بحرارة، وشكرني بشدة، ثم غادر الزنزانة لا يلوي على شيء، وانفتحت مغاليق عبد الستار بعد هذا اللقاء، وراح يتردَّد على كثيرًا.

ثم تنازَل أكثر وقبل الهدايَا التي أقدمها له من مأكولات وسجاير، وذات ظهرية وبعد وجبة دسمة طيبة، أشعل عبد الستار سيجارة، ونفث دخانها على شكل حلقات في الفضاء، وقال وقد أسند ظهره بحائط الزنزانة: أنا كنت فاكر أن السجن هيهدني، لكن أنا بعد تجربة السجن لازم أهد المجتمع كله.

وحكى لي عبد الستار عن نشأته في إحدى قرى محافظة البحيرة، وأفاض في شرح حالة عائلته الإقطاعية، وكيف أن والده دللّه حتى أفسده. وعندما التحق بكلية التجارة كان يملك سيارة، ومُرتَّبًا ثابتًا، وشلة من الأصدقاء اللَّامعِين، ولكن هذه الحياة انهارت كلها بوفاة والده، واستيلاء أعمامه على الثروة، وحرمانه من نصيبه.

واستيقظ عبد الستار ذات صبح ليجد نفسه في القاع، وليكتشف حقائق جديدة في الحياة ما كان يمكن اكتشافها بغير ذلك. وواصل عبد الستار تعليمه الجامعي في عنتٍ

شديد، وعندما تعرَّف على لطفي رأى الحياة بمنظار آخَر يختلف. ولكنه كان المنظار الصحيح.

وكان لطفي رئيسًا لتنظيم سياسي متطرِّف، سرعان ما انضم إليه عبد الستار، وكان هدف لطفي الأساسي، تنظيم الفلاحين وتعبئة قُواهم، ثم الثورة على السُّلطة والاستيلاء عليها بعد ذلك. ووجد عبد الستار ضالته الكبرى في لطفي وتنظيمه الثوري. فصار أنشط الأعضاء وأشدهم التزامًا. وعندما تخرَّج في الجامعة، واشتغل مأمور ضرائب في دمنهور، راح ينظم مجموعات من الفلاحين في القرى القريبة من المدينة، ثم ما لبث أن سقط في يد المباحث، ثم المحاكمة ثم السجن. ولكن هيهات أن يُسكِت السجن صوته، سيُعاود الكَرَّة من جديد، وسيشعل الثورة حتمًا، وسيقبض على زمام السُّلطة يومًا ما.

وكان واضحًا أن روايته التي قصها عن أسرته، شيء أشبه بروايات الأفلام المصرية الهايفة. الأسرة الثرية والمَجْد العتيد، ثم الفقر المُدقِع ثم الثورة!

وكان منظره وطريقة تعامله مع الآخَرين توحي بأنه من أحط طبقات المجتمع وأكثرهم فقرًا. وأنه لولا مجانية التعليم لما استطاع أن يقرأ ويكتب. ولكن مظهر البراءة الذي بدَا على وجهي، وإصغائي الشديد لحديثه، جعله يطمئن كثيرًا، فراح يحكي لي عن سفريات وَهمِيَّة قام بها للخارج، عندما كان يحيَا في بحبوحة العيش، وعن غزوات غرامية قام بها لنساء شهيرات في المجتمع، وذات مرة، وعقب اقتراضه عدة علب من السجاير كان في حاجة شديدة إليها كما هي عادته، همس في أذني بسر خطير.

كان السر الذي أفضى به عبد الستار، بعد أن أطمان إلى أن الضابط خارج العنبر، وحارس الدور يتمدد فترة القيلولة، وكل شيء على ما يرام. مزيجًا من الجنون والأحلام والأماني المستحيلة. وفي البداية أشعل عبد الستار لنفسه سيجارة وجذَب منها أنفاسًا عميقة طويلة، وقال وهو يرمقني بنظرة حادَّة من خلال سحابة الدخان التي غطَّت وجهه: أنا بعد سنة واحدة من خروجي من هنا حاكون استوليت على الحكم.

وعندما بدَت البلاهة على وجهي، وربما الاستهزاء أيضًا، ضرب جبهَته براحة يده وقال وهو يعتدل في جلسته: مِش مصدقني، بُكرة تسمع وانت هنا في السجن. ولَمَّا لم أُعلِّق على شيء، راح يشرح تفاصيل الخطة الجهنمية التي ستحمله إلى السُّلطة في البلاد.

لقد اختار الفيوم ليبدأ منها حركته المقبلة. ولقد اختار الفيوم لعدة اعتبارات: فهي واحة كبيرة تحيط بها الصحراء من كل جانب، ويفصلها عن الوادي خط سكة حديد يسهل نسفُه؛ وبذلك تصبح مقطوعة عن الوادي تمامًا. أما الطريق البري الذي يربطها

بالقاهرة فهو ضيِّق لا يزيد عرضه عن ستة أمتار ويمكن قطعه عن طريق عدد من القنَّاصين لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة. أما الطريق البري الآخَر الذي يربط الفيوم ببني سويف، فهو طريق رملي وغير ممهَّد، ويمكن اصطياد قوات الحكومة التي ستقطع الطريق وتدميرها تمامًا. فإذا لجأت الحكومة إلى ضرب الفيوم بالطائرات، فسيخلق هذا العمل الوحشي من جانبها رد فعل لدى الجماهير في العاصمة وستهب هذه الجماهير في ثورة عارمة ضدها. كما أن الفيوم هي أحط محافظات مصر مستوى للمعيشة، وهذا الوضع يجعل منها قاعدة للثورة، ويجعل جماهيرها الفقيرة مستعدة لخوض المعركة في سبيل مكان أفضل تحت الشمس. وقال عبد الستار بعد أن انتهى من عرض الخطة: كاسترو بدأ في كوبا بعشرين واحد، وأنا عندي ألف واحد مُستعدِّين.

وسألتُ عبد الستار سؤالًا بدا ساذجًا للغاية: طيب إنت ساكن في دمنهور، هتروح الفيوم إزاي؟

– أنا راجل موظف وهاطلب نقلي للفيوم.

ثم صمت طويلا قبل أن يقول: بس وحياة والدك الكلام دا بيني وبينك، ودا سر لو طلع بره رقبتين تروح فيه، وبعد أن أشعل سيجارة أخرى أضاف: وأنا مش خايف على رقبتي، أنا مستعد أقطعها من دلوقتي علشان مصر، لكن بيني وبينك أنا خايف على الثورة.

وخلال الأيام التي تلَت إفضاءه بِسرِّه الخطير، كان عبد الستار دائم التردد على مكاتب الإدارة للاستفسار عمَّا تم في مسألة الإفراج عن المسجونين السياسيين.

وكانت الإجابات التي يتلقاها متضاربة. كان بعضها يؤكد أن الإفراج تقرر وقد يحدث فجأة، والبعض الآخر يؤكد أن المسألة لا تزال مجرد اقتراح ولم يدخل بعد دائرة البحث والتنفيذ.

وذات صباح استُدعِي عبد الستار عن طريق الميكرفون للزيارة. وشاهَد المساجين رجلًا مُسنًّا يرتدي جلبابًا متَّسخًا وطاقية متآكلة الحوافي، وحذاء أجرب بِلا لون، صافَح عبد الستار في غرفة المأمور ثم احتضنه. وجلس معه قرابة نصف الساعة، وعندما انتهت الزيارة مدَّ الرجل يده لعبد الستار وناوله أربع علب سجاير من صنف رخيص، ثم خرج الرجل وهو يُجفِّف دمعة انحدرت من عينه بطرف جلبابه الممزق الملوث بالشحوم والتراب.

وشهدت زنزانة عبد الستار بعد الزيارة حشدًا كبيرًا من المساجين سرعان ما تحوَّل إلى مظاهرة وارتفعت الأصوات وتوالت اللعنات على رأس عبد الستار وتصاعَدت في الجو

كلمات: نصَّاب ولص وغشاش. والسبب أن أصحاب الديون الذين انتظروا طويلًا وصبروا على عبد الستار، والذين وعدهم بتسديد ديونهم عندما يزوره أحد من أهله، وها هي الزيارة قد تمَّت، وعبد الستار لا يزال يماطل ويُسوِّف ويدَّعي أن الذي زاره هو واحد من خدم والده مُعجَب إلى حد ما بثورية عبد الستار، وأن الخادم المسكين لم يستطع أن يقدم له إلا أربع علب سجاير هي كل ما استطاع أن يدخره من قوت يومه. غير أن المأمور فضح عبد الستار في اليوم التالي حين أكد أن الذي زار عبد الستار هو والده شخصيًّا، وأنه اطَّلَع على بطاقته الشخصية، وأنه يعمل بقالًا في دمنهور، وأنه خلال الزيارة شكَا لعبد الستار من وقْف الحال وقلة المكاسب، واعتذر عن عدم زيارته كل هذا الوقت الطويل؛ لأن العين بصيرة واليد قصيرة كما يقولون.

وانزوى عبد الستار في زنزانته من جديد، وتحاشى حتى الخروج إلى الفناء. ولكنه فجأة طرق باب زنزانتي ذات عصرية، وجلس أمامي يزفر بشدة، وقال وهو يتناول سيجارة قدمتها اليه: ما فيش فايدة، الإفراج طلع إشاعة، عشان كده أنا قررت أهرب.

ولما اعترضت على مشروعه الجديد لاستحالة الهرب من سجن القناطر، قال مستخفًّا: دا مفيش أسهل من الهروب من هنا، وعلى شرط ... في عز النهار.

ولما استفسرت منه عن كيفية تدبير هروب مسجون سياسي وفي عز النهار؟ قال وهو يهز رأسه هزَّات خفيفة كأنه درويش عجوز في حلقة ذكر: عارف الحوش بتاع الرياضة؟

ولما أجبته بالإيجاب، استطرد قائلًا: فيه واد عسكري واقف على السور في آخر السور بيراقب الحوش كله، والسور طوله أربعة أمتار، وفيه مصطبة تحت منه ارتفاعها مترين ونص والعسكري طول النهار مشغول بالكلام مع المساجين عشان يهرب لهم شاي من السور ويشحت سجاير منهم. ساعة التهريبة هاطلع المصطبة، وأنط ع السور من ورا، وهالبس بلوفر ملكي فوق بنطلون السجن، وهاقفز أنا في الشارع وهامشي على مهلي وكأني طالب بيتفسح في القناطر الخيرية. وعبثًا حاولتُ إقناعه بتأجيل مشروعه، فربما كان هناك تفكير بالفعل في الإفراج عن المسجونين السياسيين، وحادث من هذا النوع سيجعل موضوع الإفراج ينام على الرَّف عدة سنين.

ولكن عبد الستار كان قد قرر وانتهى الأمر، وقال وهو يستعد للانصراف: الأسبوع ده حيكون كل شيء انتهى، بس.

ولما لم يجد مني تشجيعًا على مواصلة الحديث أكمل قائلًا: بس أنا محتاج مبلغ نقدي، حسبة عشرة جنيه لو تدبرهم لي يبقى كتر خيرك.

ولما أبديتُ له أسفي الشديد لعدم توافر مثل هذا المبلغ معي، قال على الفور: على العموم ممكن السجاير تسد، لو تدبر لي ثلاثين علبة سجاير تبقى المشكلة انحلتْ.

وعندما أبديت له استعدادي بتدبير عشر علب سجاير فقط لا غير.

قال ممتنًا: مش بطَّال، بس وحياة والدك تحضرهم بكرة.

وفي اليوم التالي كان يَقتحِم علي زنزانتي. وعندما ناولتُه العلب العشرة، فحصها بدقة، وقال كأنما يخاطب نفسه: على العموم هادبر الباقي أنا، عن إذنك. ولمحتُ بعد قليل عددًا من أصحاب الديون يتردد على زنزانة عبد الستار، ويغيبون داخل الزنزانة قليلًا، ثم يخرجون ومعهم سجاير فرط يحصونها في حرص، ويضعونها في جيوبهم قبل أن يمضوا. ومر أسبوع وأسابيع كثيرة وعبد الستار مكانه، ولم يبرح السجن ولم يقفز من فوق السور، ولم أفاتحه في هذا الموضوع مرة أخرى، فقد حمدتُ الله لأن عبد الستار كف بعد ذلك عن اقتراض سجائر مني.

ولكنه ذات صباح هجمَ علي في فناء الرياضة وأنا أشترك في مباراة لكرة القدم. وقال بلهفة: ألاقي معاك سيجارة؟

ولما اعتذرتُ له عن عدم وجود سجائر معي تلك اللحظة، قال: طيب لما تطلع فوق، ثم أشار إلى حيث يقف العسكري فوق السور، وغمز لي بعينه، وقال بصوت هام: المكان أهه، لو عاوز أهرب دلوقت أقدر، بس يا خسارة.

ويبدو أن عبد الستار كان يراقبني أثناء مزاولتي اللعب، فما أن صعدتُ إلى زنزانتي حتى فوجئتُ به خلفي. وقال وهو يجلس حيث اعتاد الجلوس: شفت بقى المكان، سهل إزاي؟! ولما لم أعلق بشيء فقد قال مستطردًا: بس الله يخرب بيوتهم ... الجماعة اللي بره.

ولما استفسرتُ منه عمَّن يكونون هؤلاء الجماعة أجاب بسرعة: أعضاء الحزب، بعتلهم يَحضَّروا لي عربية يقفوا بيها عند الكوبري، عشان بسرعة أختفي من القناطر، لكن لحد دلوقت لا حس ولا خبر. رحت ألتمس الأعذار «الجماعة» فربما لا يوجد لديهم سيارة، في الوقت الحاضر، أو ربما الرقابة المفروضة عليهم لا تتيح لهم التحرك في حرية. وقاطعني عبد الستار قائلًا في حزم: على العموم، أنا قررَّت أنتظر لحد يوم الخميس وإذا مالقتيش رد. ها أهرب، واللي يحصل يحصل.

ثم طلب مني علبة سجاير واحدة، ولم ينسَ أن يقول قبل أن يغادر المكان: على العموم كل شيء بحسابه، وحقك محفوظ.

ومر يوم الخميس، ولم يتلقَّ عبد الستار ردًّا من الخارج، ولم يهرب من السجن. وجاء يوم الجمعة ولم يخرج من الزنزانة، وفي المساء عندما أغلق السجن أبوابه، صعد

مسجون من اللصوص على نافذة زنزانته وصاح بصوت كالرعد: يا عبد الستار يا سياسي إذا ما دفعتش اللي عليك بكره هافتح كرشك بنصله، أنا باقولك أهه والسجن كله شاهد، ولم يرد عبد الستار على المسجون، حتى نور زنزانته أطفأه، ويبدو أنه آثر النوم في هذه الساعة المبكرة من الليل.

وفي الصباح استيقظتُ عند الضحى ... أيقظني الشاويش عبد القادر وقال وهو يهزني بعنف: إنت لسة نايم. دا انت فاتَك نص عمرك.

ولما استفسرت منه عمَّا يعنيه، قال وهو يضحك: عبد الستار السياسي ... ما له؟

– السجن كان هيولع النهارده من تحت راسه. وراح الشاويش عبد القادر يحكي لي كيف فوجئ المساجين بأن عبد الستار مطلوب للترحيل إلى سجن دمنهور تمهيدًا للإفراج عنه من هناك وكيف اكتشف أصحاب الديون هذه الحقيقة في آخر لحظة، فهجموا على مكتب المأمور يريدون الفتك بعبد الستار. واعتذر عبد الستار لهم عن عدم استطاعته دفع ديونهم؛ لأنه فوجئ بقرار الترحيل، ولكنَّ مسجونًا قديمًا قضى في السجن خمسة عشر عامًا أقسم أن يقتل عبد الستار ولو كان الثمن أن يفقد حياته هو الآخر.

واضطر المأمور إلى أن يدفع للمسجون القديم من جيبه ما على عبد الستار من ديون، ثم أعلن حالة الطوارئ في السجن. واستدعى فرقة المطارَدة. وأغلق جميع الزنازين لكي يتمكن من ترحيل عبد الستار إلى دمنهور.

وخُيِّل إليَّ وأنا أستمع إلى رواية الشاويش عبد القادر أنه ربما شعرَت الإدارة برغبة عبد الستار في الهروب فآثرَت أن تنقله إلى سجن أكثر إحكامًا. وربما تم الأمر مصادَفة، ولكنها ستكون فرصة لعبد الستار ليهرب أثناء ترحيله إلى سجن دمنهور. خصوصًا عندما علمتُ من الشاويش أن الحراسة لم تكن مشددة وأن جنديًّا واحدًا هو الذي اصطحبه معه إلى سجنه الجديد.

ولكن كل أوهامي تبدَّدتْ حين علمت من المأمور أن الترحيل تم بناء على رغبة عبد الستار نفسه. وقد أرسل إلى المصلحة طلبًا بترحيله منذ ثلاثة أسابيع. ولما سألتُ عن سر هذا الطلب ما دام الإفراج عنه سيتم بعد أسابيع، رد المأمور بأنه لجأ إلى هذه الحيلة ليهرب من الديون؛ لأنه لو مكَث في سجن القناطر حتى يوم الإفراج عنه، فحتمًا سيقتله مسجون من أصحاب الديون إذا لم يدفع ما عليه قبل يوم الإفراج بيوم.

ومضت أيام كان عبد الستار هو حديث السجن، ثم انشغل السجن بنفسه ونسي عبد الستار. إلا أنا ... فقد رحت أرقب يوم الإفراج عنه، ورحت أتابع الصحف بعد ذلك أبحث بين سطورها عن حوادث إخلال بالأمن وقعَت في محافظة الفيوم.

ومضت شهور طويلة، وحل موعد الإفراج عني، ونسيتُ عبد الستار تمامًا في غمرة الأحداث التي استقبلتني خارج الأسوار. ومرَّت سنوات على لقائي مع عبد الستار قبل ترحيله إلى دمنهور، ومنذ أيام رأيت صورته في إحدى الجرائد، وسط حشد كبير من المواطنين، وأين؟ في مدينة الفيوم وفي مبنى الاتحاد الاشتراكي، والمناسبة احتفال ضخم أقامه أنصار تنظيم الوسط تأييدًا لخطوات الحكومة في سبيل حل مشاكل الفلاحين.

كان عبد الستار هو الخطيب، وكانت قسمات وجهه تحمل علامات التأييد المُطلَق والحماس الشديد!

الفصل السادس

عبد الحفيظ الاشتراكي

كان محمود عبد الحفيظ، أو الحاج محمود كما كان يحلو له أن يطلق على نفسه، أحد الذين أدينوا أمام محكمة الثورة بتهمة مقاوَمة حركة ١٥ مايو. وكان الحاج محمود شابًّا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين. قصير القامة متين البنيان، ويعمل موظفًا بالحكومة، ويملك بيتًا في المطرية، ويدير محلًّا للبقالة كان يمتلكه أبوه قبل أن ينتقل إلى رحمة الله. وكان الحاج محمود رغم موقفه الشائن من إخوته البنات بعد وفاة والده، واستئثاره بتركة الوالد بدعوى الحفاظ عليها من التبديد. رغم موقفه هذا فقد كان شديد التدين شديد الاستقامة، من المكتب إلى البيت، ومن البيت إلى الدكان.

ورغم حرصه الشديد الذي يبلغ حد البخل، إلا أنه كان يحلو له بين الحين والحين استقبال بعض الأصدقاء، فيجلسون أمام الدكان في أمسيات الصيف الجميلة، وكان الحاج محمود يُقدِّم لهم في تلك السهرات الشاي، وأحيانًا الحلوى والسجاير عن طيب خاطر. ورغم أنه كان نصف متعلم، إلا أنه كان راضيًا عن نفسه تمام الرِّضا، فهو يقرأ الجرائد اليومية، ويستطيع أن يقرأ ما بين السطور. وكان له رأي في السياسة يُبديه دائمًا بين الحين والحين، وإن رأيه لا يتعدَّى نطاق انتقاد سلوك لمأمور الشرطة، أو مهندس الكهرباء، أو أمين الاتحاد الاشتراكي في الحي. ولذلك عندما تولَّى مسئولية الاتحاد الاشتراكي في الزيتون أحد الرجال الأذكياء سارع بضم الحاج محمود إلى عضوية الاتحاد الاشتراكي، أولًا ليتقي شَرَّه، وثانيًا ليتسنَّى له استخدام سهرات الدكان ضد من شاء من خصومه.

وطار الحاج محمود فرحًا لهذا الشرف الرفيع، فقد أصبح واحدًا من أولي الرأي، واتَّسعَت حلقات المساء التي يعقدها أمام الدكان، وكان سعيدًا رغم زيادة التكاليف والأعباء.

والحق أن الحاج محمود لم يكفَّ عن نقد مأمور الشرطة، ومهندس الكهرباء، ورجال البلدية. ولم يبخل بمساعدة على مَن يطلبها بشرط إلا تُكلِّفه نقودًا؛ لأنه رغم مكاسبه كان دائمًا في ضائقة مالية، بسبب انشغاله في بناء الدور الثالث فوق البيت الذي ورثه عن أبيه، وحتى بعد أن انتهى من بناء الدور الثالث، فقد شرع في بناء الدور الرابع، وكانت زوجته المدبرة التي تكبره عمرًا. وتفوقه ذكاء، هي خير مُعِين له في تنظيم شئونه بحيث شعر الحاج محمود أنه فعلًا محظوظ، فقد فاز بالزوجة الطيبة، والعيش الطيب، والمركز المرموق.

وعندما وقعت كارثة ١٩٦٧م، فقَد الحاج محمود صوابه، وفقد توازنه أيضًا. وعندما رأى عَلم إسرائيل يرفرف على شاطئ القناة بكى من شدة القهر، وانزوى بعد ذلك في حدود بيته ودكانه ومكتبه بالوزارة. وكفَّ عن التردد على مكتب الاتحاد الاشتراكي وحتى السهرات التي كان يعقدها أمام الدكان في أمسيات الصيف الجميلة عزف عنها. وبدَا للناس في الحي أنه تفرَّغ لشئونه الخاصة ولم يَعُد له أدنى صلة بما يدور في البلد من أحداث. وربما استبَدَّ الحزن بهؤلاء الذين كانوا يستفيدون من نشاط الحاج محمود السياسي، ولكن الفرحة استبدَّت أكثر بزوجته التي رأت في مسلكه الجديد عونًا لها على التوفير استعدادًا لبناء الدور الخامس. فلم تكن الزوجة تؤمن بجدوى العمل السياسي، بل كانت ترى فيه وفي التدخين ضررًا بالصحة وبالمال، وكانت عبارة مفيش فايدة هي شعارها المفضَّل، وكانت تردِّده دائمًا كلما رأت الحاج محمود منغمسًا في مناقشة حادَّة حول القضايا الهامة في البلاد!

ولكن فرحة الزوجة لم تدم طويلًا؛ فسرعان ما دب النشاط في الاتحاد الاشتراكي، وجاء أمين جديد في الحي أكثر جدية من السابق، وبحث في دفاتره القديمة عن الأنصار الذين ولَّوْا، وقرَّر أن يلم الشمل من جديد، وذهب الأمين بنفسه إلى دكان الحاج محمود وسهر معه حتى منتصف الليل يحاول إقناعه بالعودة للعمل السياسي ولكن الحاج محمود أصر على موقفه، وأعلن رأيه بصراحة للأمين الجديد، وانصرف الأمين دون أن يقطع الأمل في عودة الحاج محمود! ولكن الزوجة أنذرَته بأنها ستهجر البيت إذا عاد إلى خوتة الدماغ من جديد.

وقام الحاج محمود تلك الليلة بعد أن وعد زوجته وعدًا قاطعًا بعدم العودة إلى نشاطه السابق، لكن زيارات الأمين تكرَّرت بعد ذلك وكان يخوض أحيانًا في السياسة مع الحاج محمود وأحيانًا يكتفي بكلام عام حول الأحوال السائدة في البلاد.

والحق أن الحاج محمود كان سعيدًا بلقاء الأمين، وكان أكثر سعادة بجلوس الأمين أمام باب الدكان. وذات مساء وبعد أن انتهت السهرة همس الأمين في أذن الحاج محمود بأن الاختيار قد وقع عليه ليكون عضوًا في التنظيم الطليعي. حاول الحاج محمود أن يعتذر، ولكن الأمين قاطعه في حزم: اعتذر بقى لعبد الناصر، أنا ماليش دعوة بالحكاية دي.

ولم يغمض للحاج محمود جفن في تلك الليلة. فأين هو من عبد الناصر؟ وكيف عرفه عبد الناصر؟ ولماذا اختاره هو بالذات. وعندما سألَتْه زوجته عن سر أرَقِه وسُهاده، اعتذر لها بأنه يعاني من صداع حادٍّ ولم يشأ أن يكشف لها عن السر!

وبعد أيام اعتذر الحاج محمود لزوجته في الذهاب للعزاء في وفاة والد أحد الأصدقاء. وذهب إلى أول اجتماع لأعضاء التنظيم في حي الزيتون. وكاد يُغمَى على الحاج محمود من هول المفاجأة، فقد رأى لأول مرة المحافظ بلحمه ودمه، وأكثر من هذا رأى أحد الوزراء المرموقين، ثم عددًا من كبار المسئولين. إذن فالأمر لا هزل فيه. وهذا التنظيم يختلف عن الاتحاد الاشتراكي.

وشعر الحاج براحة تغمره وسرور يسري في دمه ... لقد أصبح الآن رجلًا مسئولًا، وسيثبت للجميع أنه أهل لها وأنه أجدر الجميع بحملها وأقدرهم على حلها! وبكَت زوجة الحاج محمود عندما جلسَت معه بعد عودته تستمع إليه عمَّا حدث بالتفصيل.

ورغم بكائها فقد أقنعها أن ما حدث فيه خير له وخير للبلاد. وهدَّأ روعها قليلًا عندما ألمح لها أن في استطاعته الآن مقابلة المحافظ بسهولة، وأن هذا سيفيده حتمًا في الحصول على مواد التموين!

ومضت الحياة بالحاج محمود بعد ذلك عادية رتيبة إلا من اجتماع أسبوعي يعقده في التنظيم، صحيح أن الاجتماع اقتصر بعد ذلك على بعض المواطنين وأمين القسم. وصحيح — أيضًا — أن المحافظ والوزير وبقية المسئولين اختفوا بعد الاجتماع الأول. ولكن الحاج محمود كان مطمئنًّا إلى أن مَحاضر الاجتماعات تُرفَع إلى المستوى الأعلى حتى تصل في النهاية إلى الرئيس نفسه؛ ولذلك لم يبخل برأي، ولم يكفَّ عن أي نشاط عُهِد به إليه!

ورُوِّع الحاج محمود بوفاة الرئيس المفاجئة، وفكَّر عندئذ في الانسحاب من العمل السياسي والالتفات إلى الوظيفة والدكان، ولكن الأمين المُدرَّب أقنعه بأنه إذا كان الرئيس قد مات فإن التنظيم حي لا يموت، وأن على التنظيم الآن أن يحكم ويسد الفراغ الذي نشأ بوفاة القائد.

واقتنع الحاج محمود بوجهة نظر الأمين، وراح يُشارك من جديد في الاجتماعات ويُدلي بالآراء ويُسجل رأيه في المحاضر. وعندما بدأ الصراع في قمة السُّلطة لم يشعر الحاج محمود في أي لحظة أن ثمة صراعًا يدور في القمة. فقد حَجَب عنه الجميع أنباء الصراع. ولذلك عندما كلَّفه الأمين بقيادة مظاهرة بعد صلاة الجمعة تُطالِب بالوحدة الوطنية وعودة الوزراء المستقيلين، لم يَتردَّد لحظة، وعندما ألقى البوليس القبض عليه طلب السماح له بالاتصال تليفونيًّا بالأمين الذي كلفه بالمظاهرة، لكنه فوجئ بالأمين نفسه في الزنزانة نفسها التي انحشر فيها بعد قليل.

تمالَك الحاج محمود نفسه وعكف على الصلاة وترديد الأدعية. وحرص أن يؤدي الفريضة في مواقيت الصلاة.

وآثر الوحدة فابتعد عن الجميع، ولم يشغل باله التحقيق وما يجري فيه. فهو لم يفعل شيئًا سوى أنه حاوَل قيادة مظاهرة فاشلة لم تتم. وهو حتى عندما فكَّر في قيادتها كان يعتقد لحظتها أنه يفعل هذا في سبيل المصلحة العامة. ولم يكن يعلم — حقيقة — أن هناك صراعًا ما.

ولم يكن منحازًا لفريق ضد فريق فهو انحاز لمصر ووقف إلى جانب النظام ككل. ولا تربطه بأحد في السُّلطة علاقة على أي نحو! ولكن الذي شغله بالفعل، هو كيف يصبح دخول تنظيم الحكومة عملًا ضد الحكومة؟ وكيف يتحوَّل رجل النظام إلى مناهض للنظام الذي هو جزء منه.

إن التُّهمة التي وجَّهها المحقق للحاج محمود هي محاوَلة قلْب نظام الحكم. والحاج محمود كان يؤمن بأنه هو نفسه نظام الحكم. وظل هذا الإيمان راسخًا في قلبه حتى بعد أن دخل الزنزانة وأغلقها عليه الحارس بالمفتاح. فقد ظن أن في الأمر خطأ ما، وأن أحدهم سيفتح الزنزانة بعد قليل ليعتذر له. والذي غاظه أكثر أن كل الذين كانوا معه لا يزالون في السُّلطة، ولا أحد ضاع إلا هو والأمين، بل إن الأمين الجديد الذي كان زميلًا له في التنظيم، وربما كان أكثر منه حماسًا للمظاهرة، خطب في الحي منددًا بالخونة وأعداء الوطن، وكان يقصد الحاج محمود والآخَرِين.

كيف حدث هذا؟ وما الذي جرى على وجه التحديد؟ ولم يجد الحاج محمود أجوبة على الأسئلة التي ازدحم بها رأسه. فدفَن همه في العبادة وذِكْر الله. فلم يَعُد أحد قادرًا على تخليصه من ورطته إلا سبحانه! وانتهت المحاكمة ودخل الحاج السجن، وبدأ يتأقلم مع حياته الجديدة، ويرضى بها على أنها قضاء الله وقدره. ومن يدري؟ عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم! ولا بد أن عينًا شريرة حسودة أصابته في الصميم.

وما دامت الصحة جيدة والدكان والعمارة في أحسن حال، فكل شيء على ما يرام! وكان من عادة الحاج كلما استيقظ في الصباح الباكر، تشعلق على باب الزنزانة ثم أذن للصلاة، ثم يردد كلمة يا رب أكثر من مرة، ثم يطلق صيحة رهيبة بعبارة لا يغيرها على الإطلاق «فرجه قريب»!

وذات صباح، والحاج في نزهته المعتادة في فناء السجن، فوجئ بالمأمور يستدعيه إلى مكتبه لأمر هام، وعندما مثل الحاج بين يدي المأمور حدَّق المأمور فيه طويلًا، ثم سأله سؤالًا جعل شعر الحاج محمود يشتعل شيبًا، ومفاصل عظامه تتفكك كأنما أصابها زلزال، ولم يستطع الحاج محمود أن ينطق بالجواب، هل ينفي؟ هل يعترف؟ هل يرفض الإجابة على السؤال؟

وأخرجه من حيرته، صوت البيه المأمور يصرخ فيه مرة أخرى بالسؤال: إنت اللي كل يوم تقول «فرجه قريب»؟!

وامتقع وجه الحاج محمود عند سماعه لسؤال المأمور، فمن الذي أبلغه بهذا العمل الذي يعتبر سلوكًا خاصًّا للحاج؟ ثم ما هي عواقب مثل هذا العمل؟ وهل الابتهال إلى الله جريمة؟ وعندما أعاد المأمور سؤاله، سارع الحاج بالردِّ، فقد كانت لهجة المأمور جافَّة وجادة: أنا باذكر الله يا بيه.

وقال المأمور وهو يعنف الحاج: ابقى اذكر الله في سِرِّك.

انزوى الحاج محمود بعد ذلك في زنزانته، يراقب أحوال السجن والمساجين. وتركَّزت كل غرائز التاجر في الحاج، فاكتشفَ أن التجارة في السجن أربح منها في الخارج. فهنا لا إيجار ولا ضرائب ولا مصاريف مياه وكهرباء، صندوق السجاير الذي يُباع بربع جنيه في الخارج يُباع في السجن بضعف ثمنه. السجاير هي عملة السجن وهي أربح تجارة. وللحاج محمود قيود في مسألة السجاير، وهو في البداية امتنع عن شراء أي سجاير من الكانتين أو استلام أي سجاير من الخارج، والسبب أنه لا يدخن. ولكن ما أعظمها الآن من فرصة، إذا اغتنمها الحاج فاز من السجن بغنيمة لا يستطيع الحصول عليها في الخارج!

ولم يضع الحاج محمود وقتًا، أرسل إلى زوجته خطابًا يوصيها بأن ترسل له كميات كبيرة من السجاير، وظنَّت المرأة الطيبة المدبرة أن في الأمر خطأ ما. ولذلك لم تحضر معها أي سجاير عندما جاءت لزيارته.

ولكن عندما شرح لها الحاج محمود تفاصيل مشروعه الجديد؛ رحَّبَت على الفور وسرعان ما تكدَّست زنزانته بصناديق سجاير من كل الأنواع، وجذب الزحام الشديد على

زنزانة الحاج نظر الشاويش. ولكن الحاج المُدرَّب استطاع أن يملأ فم الشاويش وأن يسكته أيضًا.

آثار الحاج محمود حسَد التجار الآخَرين في السجن وكان عليه أن يدخل سلسلة معارك طويلة ضد الذين احتكروا التجارة في السجن منذ أمد طويل، ودخل الحاج محمود معركة وأخرى، ولكنه اكتشف أن الطريق طويل، وأنه لا محالة هالك في النهاية، فآثر الانسحاب من المنافسة الدامية، ولكن إلى عمل آخر لا يستطيع أحد أن ينافسه فيه. فقد كان السجن يستقبل كل يوم سبت عددًا من المساجين كلهم شُبَّان، كلهم جاءوا إلى السجن لارتكابهم جريمة واحدة. هي الهروب من الجندية؛ ولأنهم منقولون من السجن الحربي، فقد وصلوا إلى سجن القناطر في غاية الإعياء، وليس مع أحد منهم سجاير ولا نقود، وكانت مهمة الحاج محمود عندئذٍ هي مد يده الكريمة إلى هؤلاء الضائعين، بالسجاير وعلب الأطعمة المحفوظة على أن يدفع هؤلاء ما عليهم من نقود بعد ذلك. عملية فيها مخاطرة، ولكن الحاج قام بها عن طيب خاطر.

استأجر الحاج مسجونًا من عُتاة المجرمين، له سِجِل حافِل في الجريمة، وسوابق في فقأ أعين الحراس، الأمر الذي جعل إدارة السجن تغمض عينها عن نشاطه المريب داخل الأسوار. وكان سعيد — هذا اسمه — شابًّا في مقتبل العمر. قصير القامة مَتين البنيان، قويًّا كالثور، وكان مسلحًا بخنجر له نصل حادٌّ يخفيه في طيات ملابسه، ورغم أن الحراس الذين تولَّوا تفتيشه أكثر من ألف مرة، كانوا يعرفون موضع الخنجر في ملابسه، إلا أن أحدًا منهم لم يجرؤ على ضبطه في يوم من الأيام.

وكان سعيد ينتقل طول النهار تحت سمع وبصر الإدارة بين العنابر قاطعًا فناء السجن، ليوزع السجاير وعلب الأطعمة المحفوظة في زنزانة الحاج محمود إلى مختلف الزنازين. ثم يعود آخر الأسبوع فيجمع الحساب ممن تلقَّوا نقودًا من ذويهم، وكان يقتنع بربع حصة له عن عمله مع الحاج، تاركًا للحاج محمود الباقي نظير رأس المال. وتعرضه للإفلاس تمامًا إذا تم ترحيل هؤلاء المساجين فجأة يومًا ما!

واطمأن الحاج محمود إلى العملية الجديدة. فكل خطوة فيها تسير حسب الخطة الموضوعة والأرباح فاحشة، والمستقبل زاهر، وفترة السجن لن تضيع هدرًا، ورَب العباد الكريم، يقطع هنا ليوصل هناك. وتسلَّح الحاج محمود بعدة دفاتر لينظم حساباته؛ ولأن الورق والقلم من الممنوعات بالنسبة للمسجون السياسي، فقد جعَلها في عهدة شريكه سعيد، وكان سعيد يحملها إليه في الصباح، ويقضي الحاج محمود وقتًا طويلًا في إثبات

الديون، وشطب المُتحصِّلات، وإسقاط الديون الميتة التي تم الإفراج عن أصحابها! وتم ترحيلهم من السجن.

واتسعت أعمال الحاج محمود، فصار يشتري من السجن بضائع يسلمها لزوجته لتبيعها في الخارج. وكانت هذه أول سابقة في تاريخ السجون المصرية، ولكن سيظل الفضل في اكتشافها للحاج محمود عبد الحفيظ.

وأصل الحكاية أن المسجونين يَتلقَّون من ذويهم في الخارج طرودًا، وهذه الطرود تحتوي على ملابس شتوية، وأطعمة، وصابون، ومعجون أسنان. ولما كان المسجون ليس في حاجة إلى هذه الأشياء بقدر حاجته إلى سجائر كثيرة، فإن أغلبهم يعرضون ما تلقوه للبيع مقابل سجائر يدخنونها ويستعملونها في رشوة الحراس وقضاء مآربهم الأخرى.

وانتهز الحاج محمود الفرصة، وراح يشتري كل شيء، ملابس، معجون أسنان، أحذية جديدة، صابون معطر. وذات مرة تلقَّى مسجون من بلاد المغرب عدة صناديق سجاير من نوع فرنسي غالي الثَّمن، ولكنه ليس ذائعًا في مصر، وأراد الرجل المغرب أن يبادل السجاير الفرنسية بسجاير مصرية، وتقدم الحاج محمود وحل المشكلة. ولكن السجاير الفرنسية لم تلقَ رواجًا في دكان الحاج فأراد إلغاء الصفقة، ولكن الرجل المغربي اعتذر، وكانت خناقة حامية، وصلت إلى مكتب المأمور. ومن خلال التحقيق السريع، الذي أجراه المأمور مع الحاج والرجل المغربي، استطاع أن يكتشف بعض جوانب القضية الغريبة الغامضة وربما وصل إلى استنتاج لحقيقة الدور الذي يقوم به الحاج في السجن!

ولكن هذا الحادث العابر لم يجعل الحاج محمود يتوقف عن العمل، بل ظل يزاول نشاطه كالعادة بمنتهى الهمة والنشاط، ولكن لأن الرياح لا تأتي دائمًا بما تشتهي السفن، فقد بدأت المتاعب تلوح في الأفق فقد مضَت عدة أسابيع والحاج محمود يثبت في دفاتره ديونًا، دون أن يكون هناك أية مدفوعات. وكان سعيد يسوق في كل مرة حججًا لعدم التحصيل، والحاج محمود ساكت لا يستطيع حراكًا. فهو أولًا لا يعرف أصحاب الديون، فالعلاقة معهم مقصورة على سعيد وحده. وهو لا يستطيع أن يُكذِّب سعيدًا أو يتهمه بالتحصيل؛ لأن عواقب عمل مثل هذا لا يعلم بها إلا الله!

وفكر الحاج محمود أن يتوقَّف قليلًا عن العمل، خصوصًا أن موعد الإفراج عنه قد أصبح على الأبواب. وفاتَح سعيدًا في الأمر، ولكن سعيد اعترض بشدة، فكيف يتوقَّف والأرباح تنهمر على رأسيهما كالمطر، واقترح سعيد اقتراحًا جهنميًّا لمعت له عينَا الحاج محمود. لماذا لا يواصل الحاج تجارته في السجن وهو في الخارج. إن سعيدًا مقطوع من

شجرة، فلا أحد يزوره ولا أحد يسأل عنه حتى بخطاب. ويستطيع الحاج أن يزوره مرَّتَين كل شهر، وأن يحمل له البضاعة وسعيد يمارس عمله ويسلم الأرباح للحاج. كما أن من حق الحاج أن يرسل طرودًا لسعيد دون أن يتحمل مشقة المجيء للزيارة. إنها عملية سهلة ومربحة وستحقق للحاج دخلًا يعوضه عن فقد الوظيفة، وعن وقف الحال في الدكان!

وسرَح الحاج تلك الليلة في مشروع سعيد ولكن الخوف الوحيد أن يطمع سعيد في أرباح الحاج محمود فيلطشها كلها ويرفض الدفع، ولكن تجربة الحاج محمود مع سعيد تثبت العكس. فهو في غاية الأمانة وظل يدفع ما عليه بانتظام، صحيح أن هناك متأخِّرات لعدة أسابيع ولكن الذنب ليس ذنبه، بل ذنب المساجين المفلسين الذين يرفضون الدفع. على العموم هو مشروع جيد فقط لو اكتشف الحاج طريقة تضمن حقوقه عند سعيد. هكذا همس الحاج محمود لنفسه وهو يتهيَّأ لصلاة العشاء في زنزانته التي حرص على إطفاء النور داخلها حتى لا يزعجه حرَّاس الليل بطلباتهم المتكررة.

ونام الحاج محمود في تلك الليلة نومًا هادئًا مباركًا، وعندما استيقظ على ضجة المساجين، كان الوقت ضحى، والشمس تتسلق الأفق. والجو رائع، ورائحة زهر البرتقال تفوح في جو القناطر، وتوضأ الحاج محمود وخطف ركعتين سريعتين، وخرج ليشتري بعض الوقود، فقد نفدت الكمية التي كانت لديه، وكان محمود يلجأ في مثل هذه الأعمال لسعيد، وعندما عرج الحاج على زنزانة سعيد اكتشف أنها مغلقة، فأدرك أن سعيدًا ربما في جولته المعتادة لجمع النقود المستحَقَّة على المساجين. ولذلك راح يفتش عليه هنا وهناك دون أن يعثر له على أثر. وفجأة رأى أحد أصدقاء سعيد يقطع الفناء فناداه الحاج وسأله عن سعيد، وقال الرجل وهو يحث الخطى في طريق إلى حيث يريد: سعيد رحَّلوه النهارده الصبح، راح سجن قِنا. ونزل الخبر على الحاج محمود كالصاعقة.

وانزوَى الحاج محمود بعد هذا الحادث يلعق جراحه في اكتئاب شديد لقد تحمَّل المحاكمة والسجن وضياع المستقبل، ولكنه لم يستطع أن يتحمل ضياع تجارته في السجن! وماذا يستطيع أن يقول لزوجته وكيف يُبرِّر ما حدث له؟

ولكن ليس الذنب في الواقع ذنب الولد سعيد، السياسية هي السبب! ملعون أبو السياسة وملعون أبو الذي أغراه بالعمل فيها. ما كان أغنى الحاج محمود عن العمل بالسياسة، فهو موظف حكومة وصاحب دكان ومن ذوي الأملاك، لو عاش وحده ولنفسه لكانت أحواله عال العال. وضربَت موجة من الأسى نفَس الحاج محمود عندما تذكَّر أيامه

الخوالي. صحيح كان صاحب سُلطة. وكان عسكري المأمور يضرب له تعظيم سلام إذا رآه.

فلتذهب كلها إلى الجحيم، وعليه أن يواجه حاضره الأغبر ومصيره المجهول، وأن يحاوِل تعويض خسارته الباهظة قبل أن تمر الأيام، ويكون عليه بعد ذلك أن يواجه أيامًا عصيبة بعد الإفراج. وفكر الحاج في معاودة نشاطه داخل السجن ولكن بمساعدة آخَر أكثر أمانة من سعيد، ولكن من أين يجد إنسانًا صاحب أمانة في سجن المفروض أن كل من فيه فقدو هذه الصفة قبل الوصول إليه!

ولكن لماذا لا يقوم الحاج محمود بالعمل بنفسه، ما حك جلدك مثل ظفرك! على الأقل ستكون الأرباح كلها في جيبه، وهو يستطيع عندئذٍ أن يتساهل قليلًا في الأسعار، ولو فعل ذلك فسيجني مع الربح، الشكر والذِّكر الحَسن! ولماذا لا يستعين الحاج بواحد من حراس السجن، وسيتوافر عندئذٍ الربح مع الحماية. فكرة جهنمية لم تخطر على بال أحد من قبل. وراح الحاج يستعرض في ذاكرته كل الحراس الذين يعرفهم. سيف الطويل العريض الشرس، ولا عبد الخالق النزيه صاحب المزاج، وعبد القادر رجل معتوه ومزاجي، أحيانًا يبدو طيبًا للغاية، وودودًا أيضًا، وأحيانًا يتحول إلى وحش كاسر! وعم توفيق العجوز الخبير في فنون الرشوة والتهريب، لم يبق إلا الضباط. أبو بكر الشرير الذي يهوى الأذى أكثر من هوايته للنقود. وإبراهيم الطيب المزاجاتي المدمن على الحشيش والأفيون.

وقرر الحاج محمود أن يفاتح الضابط إبراهيم في الصباح، وعندما وقف الحاج أمام الضابط في مكتبه الملحق بالعنبر وجَد المسجون روبير في المكتب، فلم يفتح الموضوع واكتفى بالحديث في موضوعات عامة لا صلة لها بالموضوع، وأيام كثيرة مرت والحاج محمود يحاول ولكنه لا يستطيع، وأخيرًا قرر أن يتوكل على الله وأن يباشر المهمة بنفسه. فلم يبق على موعد الإفراج إلا ثلاثة أشهر، ولا بد أن يجني فيها ما يستطيعه حتى يعوض ما خسره في سالف الأيام، ولما كانت تجارته وقفًا على الإيراد الجديد من العسكر الهاربين من الخدمة، ولما كان هؤلاء يسكنون في دور ٦ في عنبر «ب» فقد توجَّه الحاج إلى هناك لكي يلقي نظرة على السُّوق قبل أن يبدأ العمل.

وراح الحاج منذ أن خرج من زنزانته يوزع السجائر ابتداء من شاويش الدور على شاويش العنبر إلى عسكر البوابة إلى حضرة الصول الذي يتَّخِذ الفناء مقرًّا مختارًا له. وعندما وصل إلى عنبر «ب» قدَّم السجاير لعسكري فرفض، وتعجَّب الحاج فهذا أول عسكري في تاريخ السجون يرفض السيجارة. ولو قالوا للحاج محمود إن الشمس تغرب

في المشرق لصدق، ولكن عسكري السجن يرفض سيجارة هذا المستحيل! وفلسف الحاج محمود الأمر لنفسه، الحاج من رجال السياسية، فربما العسكري يعرف أن الحاج من رجال السياسة ويعرف — أيضًا — أنه سيفرج عنه عما قريب، والسياسة بحرها غويط، ورجالها أحيانًا في السجن، وأحيانًا في السُّلطة.

بعيد النظر هذا العسكري، وهو يحسب حساب الأيام القادمة، ولكن ما أشد دهشة الحاج محمود عندما رفض شاويش عنبر «ب» أن يأخذ منه سيجارة. ورفض — أيضًا — شاويش الدور. هذا عنبر ملائكة وليس مثل عنبر «أ». وفكر الحاج أن يطلب النقل إلى هذا العنبر، وستكون التجارة من هنا أربح؛ لأنها ستكون بلا مصروفات، وصعد الحاج السلالم. كان العسكر السجناء يَتلطَّعون في الدور، ويجلسون في كسَل على الأرض، وعندما اقترب الحاج محمود من الجماعة وألقى عليهم السلام، ردُّوا عليه بفتور، ولكنه عندما أخرج علبة الدخان من جديد نهضوا في نشاط وتَهافتوا عليه كالذباب. وعندما سألهم السؤال التقليدي: كلكم عساكر في الجيش؟ ردُّوا عليه جميعًا بالإيجاب. واستعد الحاج محمود ليبدأ الشغل معهم، ولكن الكلمات احتبست في حلقه؛ فقد هجم عليه المأمور والضابط أبو بكر وضابط آخَر في ملابس مَدنِيَّة، لقد كان الحاج إذن تحت المراقبة. وهذا هو السبب الحقيقي الذي جعل العسكري والشاويش والشاويش الآخَر يرفضون سيجارة الحاج، ولم يدرك الحج محمود حقيقة الأمر إلا في الليل وأمام النيابة. لقد كانت التُّهمة الموجَّهة له هو الاتصال بعساكر القوات المسلحة لتكوين عصابات لمناهضة نظام الحكم. وعبثًا حاوَل الحاج إفهام السلطات أنه إنما كان يريد التجارة معهم والربح من ورائهم، وهل يُعْقَل أن يشتغل السياسي بالتجارة؟! إنها مؤامرة جديدة على نظام الحكم!

هنداوي